الخذلان الكبير

محمود الدسوكي

الخذلان الكبير
محمود الدموكي
تدقيق لغوي :عبدالله أبو الوفا
تصميم الغلاف : عبير محمد
رقم ايداع: 2019/1950
ترقيم دولي: 978-977-6594-65-4

دار فصلة للنشر والتوزيع
٧٧ ش - صلاح الدين عبد الكريم - متفرع
من عثمان محرم - هرم - جيزه
٢٣٥٦٢٩٣٦٩.
fasla,pub@gmail,com
FB .Com/Fasla .Pub

فصلة
للنشر و التوزيع
Fasla Publishing & Distribution

جميع حقوق الطبع و النشر محفوظه

الطبعه الأولي يناير ٢٠١٩

فصلة
للنشر و التوزيع
Fasla Publishing & Distribution

جميع حقوق النشر محفوظه لدار فصلة للنشر و التوزيع
إن أي تصوير أو اعادة طباعه أو نشر بشكل ورقي أو الكتروني
أو ترجمته أو تسجيله صوتيا بدون إذن كتابي مسبق من الدار
يعرض صاحبه للمسائله القانونيه

الخذلان الكبير

إسراء 2

محمود الدموكى

فصلة
للنشر و التوزيع
Fasla Publishing & Distribution

تنويه

هذا الجزء خيالي بالكامل وليس له أي علاقة بالحقيقة مثلما كان الحال في الجزء الأول، هذا الجزء كتبته لأن قراء الجزء الأول أرادوه، ولأنهم فعلًا استحقوه، لكن الأبطال الحقيقين للعمل لم يعيشوه، وربما لم يُريدوا أن يعيشوه كذلك، كونوا حذرين خلال القراءة لأنكم مُقبلون على وابلٍ من الصدمات.

إهداء

إلى قرّاء الجزء الأول من رواية إسراء، إلى الذين راسلوني من مصر وسوريا والأردن والعراق وفلسطين والسودان وعمان، إلى جميع من قاده حظي الجيد إلى قراءة مولودي الأول قبل عامين، غلفتموني بحبكم للجزء الأول وأدهشتموني بارتباطكم بأبطاله، كنتم رائعين، صدقوني هذا الجزء كُتب لكم فقط.

إهداء خاص

إلى الفتاة التي أهديت لها الجزء الأول...

أنا لا أحبك، ولا أؤمن بكِ، لا أكتب لكِ، ولا أكتب عنكِ، لا أعرف أين أنتِ، ولا يشغلني وجودكِ، كل ما هنالك أَنني كنت أدين لكِ بهذا الإهداء، وفعلت وانتهيت، بات بمقدورك الاستيقاظ من أحلامك الآن.

النهاية... ذلك الجزء الذي تُدرك فيه أخيرًا كل ما حدث لك منذ البداية.

(٠)

السبت، ٢٠ ديسمبر ٢٠٥٦

التاسعة مساء، مصر الجديدة

مُذ غادرني الطبيب وأنا أشعر بالرعدة تسري في أوصالي، الهواء الذي يستشري الآن في جسدي يأكلني، يقتلني، لم أعد أمتلك زمام نفسي ولا أقوى على حمل كوب ماء فارغ بيدي، التي لا تكف عن الارتعاش، كل شيء من حولي يتهاوى، هذه نهاية العالم بالنسبة لي، أنا ضعيف ضعف الموت، أشم رائحته، صحيح أنني لا أخافه، لكنها الرهبة التي طالما سمعت الراحلون يتحدثون عنها، فهل حقًا اقترب الموت مني إلى هذا الحد؟

الآن فقط أدرك أن الوقت قد حان لإدراك كل من فوتوني طيلة مكوثي بهذه الحياة، أمي، أبي، زوجتي، أنا في طريقي إليكم، لماذا تركتموني وحيدًا كل هذا الوقت؟ وكيف أمضيت هذه الأعوام دونكم؟ وبأية حالٍ يا تُرى سأجدكم؟ غريبٌ أنت يا موت، دائمًا ما تأتي مُحملٌ بالأسئلة التي لا إجابة لها.

أصبحتُ شيخًا في السبعين من عمري، يُحاوطني أولادي وأحفادي، يملؤونني بالحب والشفقة، وأملؤهم بالعجز والألم، لا شيء بيدهم أو بيدي، سأموت قبل أن تُشرق شمس الغد على الأرجح، هكذا أشعر، وما كُنت أحسب أبدًا أن اللحظات الأخيرة في حياتي ستعج بكل هذا الدفء والحب، لم أتخيل أيضًا أنني سأجد حولي من يذرف دموعه وجعًا على رحيلي ويلتف حولي حتى ألفظ أنفاسي الأخيرة بدفء، قبل خمسين عامًا من الآن ما كنت أوقن أصلًا أن يومًا مثل هذا سوف يأتي ويجدني على هذا الحال، ما كنت أحسبه سيأتي من الأساس، أشياء كثيرة لم أتوقع أنها ستحدث في حياتي، وحدثت في نهاية المطاف!

يُطمئنني ابني الأوسط يوسف فيُخبرني أنني بخير، وأن ما أمر به مجرد وعكة صحية ستزول مع مرور الوقت، لكن عن أي وقت تتحدث يا يوسف؟ أبوك يُدرك أنه لن يرى تسلل الشمس في صباح الغد، حتى الدُعامة التي وضعها

الطبيب في قلبي ما عادت قادرة على مواكبة المُعدل الطبيعي للنبض، أنا بخير لأنكم حولي فقط يا يوسف، لكنني عندما أخبرتك في طفولتك أن تتحكم في دموعك وتتماسك عند الشدائد أخبرتك كذلك ألا تلجأ أبدًا إلى الكذب، وإن فعلت فلا تفعل ذلك مع أبيك الذي يحفظك عن ظهر قلب.

أنت تكذب يا يوسف، وتعرف أنك تكذب، وتعرف أنني أعرف بأنك تكذب، والمُقلة التي في عينيك تُجاهد حتى تمنع انجراف الدموع من خلفها، لا بأس عليك، آمل أن تجد لنفسك زاوية فارغة وتبكي، وآمل ألا تنتحب حتى نسمعك، وآمل كذلك ألا تكذب على والدك ثانية، تحمل على الأقل حتى حلول الصباح، سأموت عند الشروق.

لم أفقد النظر بعد يا إسراء حتى أعجز عن ملاحظة هروبك من مواجهتي، وكأنك تهربين من نفسك يا صغيرتي! ألم تُخبريني من قبل أنك تعتبرنني جزء منك، حقًا؟ ألم يُخبرك ذلك الجزء إذن أنني لا أشعر بالخوف من الموت، وأن الخوف إذا كان موجودًا فإنه خوفٌ عليكم مما سيحدث لكم بعدي، أنتم أقوياء، لا أنكر ذلك، لكن الحياة أقوى منكم، لطالما حلمت بأن أحجبها عنكم طوال الوقت، لكنني لم أعد الآن قادرًا على ذلك.

أخشى عليكِ من الحياة يا إسراء، ولا أخشى على نفسي أبدًا من الموت، فقد عشتُ سبعة عقود وجربت في هذه الدنيا كل ما هو صالحٌ للتجريب، فرحت وحزنت، انتصرت وانكسرت، خذلتُ وخُذِلت، وكنتِ أنتِ يا إسراء بالمناسبة مرة من مرات فرحي المعدودة على أصابع اليد الواحدة، أنتِ تُكملينني، تفهمينني من نظرةٍ واحدة وأفهمك حتى قبل أن أنظر إليكِ، كانت والدتك دائمًا تعتقد بوجود كيمياء غريبة بيننا، لكنني لم أؤمن بذلك على الإطلاق، أنتِ فقط مجرد جزء مني، أنتِ أنا، وأنا أنتِ، هكذا وجدنا بعضنا البعض.

ما زلتُ أذكر يا سارة، كما تُحبين أن أناديكِ، اليوم الذي وُلدتِ فيه، كنتُ في الأربعين من عمري، وكنت أحسب أن وقت حمل مولود جديد مرة أخرى أشبه بالمُستحيل الثامن على هذه الأرض، لكن الحياة لم تخذلني وأهدتكِ إليّ، كُنتِ

نورًا مُشعًا أضاء عقودي الثلاث المتبقية، أكثر ما يؤلمني في الموت هو تركك يا صغيرتي.

لطالما كنتِ روحًا ثانية لي، وكأن قدر كل الذين سموا بهذا الاسم أن يحظوا بكل هذا القدر من الحب، حتى أنت يا زين، بالرغم من كونك الأوسط بين إخوتك إلا أنك ما زلت كما أنت منذ لحظتك الأولى التي رأيتك فيها، لا تستطع كبح جماح أي شيء فيك، ولا تقدر حتى على منع دموعك المُتأهبة من الانهمار، لو تعلمون يا أضوائي الثلاثة من أين جاءت أسمائكم وما هي قصة أصحابها الحقيقين لقضيتم العمر كله تسألون سؤالًا واحدًا، مُذ متى كانت الأرض تسع كل هذه المعجزات؟

***

إنها الواحدة صباحًا، وما زلتُ كما أنا، أصارع الموت وأستجلب النوم، فلا الموت يُريحني ولا النوم يُطاوعني، حتى أولادي الثلاثة قد غادروني وأطفأوا الأنوار بعد أن عللوا لي الأمر بأنني في حاجة إلى قسطٍ من الراحة، حتى ولو كنت أنا من أمرهم بذلك، لكنني من داخلي كنت آملً أن يرتموا تحت أقدامي بحب ويقسموا أنهم لن يُغادروني مهما كان، لكنهم فعلوا، وبالتأكيد لا أشكك في حبهم لي أو أنتقص منه، لكن ذلك الأمر جعلني أُفكر فيما هو حادث لا محالة، موتي، هل سيتركون قبري ويرحلون أيضًا؟ هل سينتهي كل شيء عند هذا الحد؟

بالطبع سينتهي، وسيُعلل العاقلون ذلك بأنها سنة لعينة لهذه الحياة، وإنني على يقين أن أحدًا ما لن يُصدقني إذا أخبرته بأنه قبل خمسة عقود كان ثمة بشر مثلنا لزم قبر الشخص الذي يحبه ولم يُغادره، ثمة رجل رأى في موطن الأموات حياة له، ورأى الموت في معاشرة الأحياء، إنه الرجل الوحيد الذي أعرفه أكثر من أي شيء آخر، آهٍ لو يترك لي الموت الفرصة كي أحكي عنه، أن أقص القصة الأغرب في تاريخ البشرية، لكن الموت بالتأكيد لن يُمهلني لذلك، أصلًا لا أحد ليسمعني الآن لأخبره، إذًا، لا حل لدي سوى الكتابة عنه.

أتحاملُ على نفسي وأنهض من مكاني جالسًا، أتكئ إلى الوسادة فأشعر بجانبي الأيسر وكأنه يعتصر من الألم، أسند ظهري على الوسادة فأشعر بقسطٍ من الراحة، أُدرك أنني سأبْلي بهذه الوضعية فأعتدلُ بها وألزمها ثم أدس يدي تحت وسادة نومي، يا تُرى، هل لا تزال الأوراق التي تركتها كما هي؟ وإن كانت، هل ما زالت تحتفظ بالقلم الذي حشرته بداخلها؟ أبحثُ بيدي وأمُررها بالكاد من أول الوسادة إلى آخرها فأعثر عليهما، حقًا، الجمادات وحدها لا تتغير بمرور الوقت.

على المنضدة بجواري أرى نظارتي، أرتديها كي أتمكن من قراءة ما سأكتبه، أُخرج القلم من داخل الأوراق ثم أشرع في الكتابة، أهتز وتهتز يدي، أم تهتز يدي فأهتز؟ لا فارق، المهم أنني لم أعد قادرًا على التحكم بالقلم، ذلك اللعين الذي عشتُ به وعليه طوال عملي كصحفي، الآن ما عاد يُطاوعني أو يقبل الترويض، ما الذي حدث يا زمن، هل كل هذا لأنني كبرتُ في السن، أم فقط لمجرد كوني مريض يلفظ أنفاسه الأخيرة!

أدمعُ، للمرة الثانية في هذه الليلة أشعر أنني أحمق ضعيف، حتى القصة التي آمل أن أكتبها لا تُريدني أن أفعل، والقلم الذي صُلت وجلت به بات أكبر من أن تحمله يدي المرتعشة وتكتب به، هل سيهزمني ذلك الجامد الأخرق الذي قلبته طيلة خمسة عقود بين الحقيقة والتضليل، هل كان يمتلك يومًا حق الاعتراض عليّ أو الوقوف بطريقي؟ اليوم يفعل وأنا في أشد الحاجة إليه! عمومًا لا وقت للندب والزجر، أنا الآن لدي قصة وبضع ساعات في الحياة، أي طريقة يُمكنني من خلالها ملئ الساعات بقصتي!

أُقلّب عيني بين أرجاء الغرفة في عجز، أشعر وكأنني غارق يبحث عن أي قارب للنجاة، والحقيقة أنه لأمر غريب جدًا أن تكون نجاتي في تدويني لبعض الكلمات، لكن أي طريقة يُمكن أن يحدث بها ذلك التدوين! أكاد أُجن وأشعر أنني سأصرخ، سأخرج إلى الشارع وأوقف الناس وألقي على مسامهم قصتي وأقول أنـــ...

في هذه اللحظة راودتني فكرتي الأهم، أخذت هاتفي من على المنضدة بجانبي ثم أشعلت زر التسجيل وأطلقت العنان لنفسي في الحديث، خفضت صوتي إلى الحد الذي يُلائم مرضي ويمنع بَنيّ من سماعي، بدأت الحديث وبدأ السعال معه، افتضح أمري، كيف جهلت أن التفكير والتكلم بالعقل شيء، ومحاولة إدخال الفم واللسان في الأمر شيء آخر! ما الذي سأفعله إذًا؟ هل سأُفرط في قصتي الأهم بهذه السهولة؟ هل سـ...

فتحت إسراء الغرفة عليّ، يبدو أن سعالي قد انتزعها من النوم وجاء بها إلى هنا، سألتني:

«هل كل شيء بخير؟»

أومأت برأسي ومنحتها ابتسامة واهنة، فكرت في استخدامها لفعل ما أُجاهد لفعله، قلت برجاء يغمره الأمل: «هل تُقدمين لأبيكِ خدمة أخيرة في حياته؟»

أومأت صغيرتي واقتربت من فراشي، جلست على حافته ثم ناولتها الأوراق والقلم، كانت لا تزال مُتفهمة للأمر بصورة جيدة، قُلت: «الآن ليس عليكِ سوى كتابة كل ما سأقوله الآن، لكن أولًا اذهبي إلى هذا الدولاب».

ذهبت إسراء كما طلبت، كانت واقفةً تنتظر الأمر مني، طلبتُ منها فتح الدولاب ثم وضع يدها أسفل أحد تكتلات الملابس به، تحسست ورقة بيدها، كنت أشعر بذلك، طالبتها بإحضار الورقة فانتزعَتها من أسفل الملابس، كانت عبارة عن مقالة من جريدة قديمة بتاريخٍ قديم، طلبتُ منها قراءة المقالة فنفذت بلا نقاش.

«المعجزات لا زالت تحدث!

قبل أيام صادفت شاب صغير يعمل لدينا في الجريدة تحت التدريب، كان يمر بحالة مُذرية يُمكن ملاحظتها بمجرد النظر، سألت عنه فعلمت أنه قد مر لتوه من معجزة صغيرة لا تحدث كل يوم، لقد وقع هذا الفتى في حب فتاة لم يرها،

فقد عثر على مذكراتها في أحد مقاعد القطار وهام بها حبًا لمجرد قراءة كلماتها، حسبما قيل لي كانت المذكرات تحتوي على متطلبات فتاة في فارس أحلامها، وصدقوا أو لا تصدقوا، لقد حقق الفتى طلبات الفتاة ليُصبح فارس أحلامها.

استغرق الأمر من الفتى عام واحد ليُصبح الشخص المناسب من وجهة نظر صاحبة المذكرات، وعندما انتهى من ذلك بمساعدة أحد زملائه أراد أن يأخذ الخطوة التالية البديهية بهذا الصدد، ذهب وتقدم لخطبة الفتاة، لكن الصاعقة أن تلك الفتاة كانت قد ماتت، وخمنوا ماذا؟ لقد ماتت الفتاة في نفس اليوم الذي عثر فيه فتانا على المذكرات الخاصة بها، ببساطة، لقد ظل طوال عام كامل يُحب في شيء ليس له وجود بالمرة، لكن هذا ليس كل شيء يُمكن قوله عن هذا المسكين.

في الوقت الذي كان فتانا فيه يحظى بمساعدة صديق له لتحقيق حلمه المنشود لم يكن يعرف أبدًا أن صديقه هذا فتىً مختل، وأنه هو الآخر قد أراد الظفر بفتاة المذكرات، لكن بطرق بدت غير شرعية بالمرة، إذ أنه قد خطط لقتل صديقه ثم انتحر بعدما عرف بخبر وفاة الفتاة قبل أن يظهر خبرة نجاة فتانا من محاولة القتل، وإذا كنت ستظن بأن فتانا قد ألقى بكل ما في جعبته من غرائب ومستحيلات فأنت مخطئ بالتأكيد.

بعد أن انتهى كل شيء لزم فتانا قبر الفتاة التي لم يرها، ولم تره أيضًا، كان يذهب في الصباح إلى جامعته وعمله ثم يقضي المساء على عتبة قبر الفتاة التي أحبها بين وحشة وعتمة القبور، وكأن هذه الحياة هي التي بدت ملائمة له بعد كل ما مر به، كنت أنظر إلى الفتى وأرى ذلك القدر الكبير من الألم الذي يمر به، لم أكن أعرف ما حدث له وأدى إلى كل ذلك، الآن، وبعد أن عرفت بتُّ أردد: المعجزات لا زالت تحدث».

نجيب زهران

٢٠١٧/٥/١٣

جريدة الاتفاق

لم تفهم إسراء ما قرأت وبدت متعجبة، نظرت إليّ طالبةً الإجابات، تغاضيت عن نظراتها وقلت:

«هل أنتِ جاهزة الآن للكتابة؟»

أومأت موافقة، ثم أخذت وضعية الكتابة وأعطت أذنها لي كاتبةً ما تسمعه من صوتي المتهدج.

***

الحنين... الرابط الوحيد بين الأموات والأحياء.

(١)

١٧ ديسمبر ٢٠٢٠

العاشرة مساء، مقابر آل منير، شرنوب.

مذ ماتت حياته عاش كالميت وسط القبور، يُمارس حياته النمطية في الصباح، ثم يُهرول إلى قبور عائلة مُنير ليستكمل حياة الخلود التي بدأها قبل خمسة أعوام، الغريب أنه لم يشعر بالسأم أو التعود، وكأنه خلود الجنة الذي لا ملل فيه ولا ضيق، وكأنها هي الجنة التي وُعد بها وعاش حياته يعمل من أجلها.

مُذ ماتت إسراء اكتشف معاذ قيمة جديدة للموت تُخالف تلك التي نعرفها عنه، إنه لا يعني أبدًا نهاية أي طريق أو مفارقة أي رفيق، بل بداية جديدة لحياة جديدة يكون التواصل بها أمر روحي خالص، تنتهي فيها سطوة الأجساد وتأخذ الروح بجوهرها المكان الذي تستحق، مشكلة البشر الأبدية أنهم لم يفهموا الموت وحقيقته، لكن معاذ فعل، وكان طريقه إلى ذلك شيئًا لا يقل سماءً عنه، الحب.

يُقلّب معاذ عينه بين القبور بوجل، رهبة الموت لا تعني أبدًا الخوف منه، إنه ذلك الشعور بالضعف والعجز أمام أولئك الأموات الذين تمكنوا من الولوج إلى العالم الآخر تاركين ورائهم الحياة بكل ما تُمثلها لهم من مُتع، وبالتأكيد لم تكن هذه الصفقة لتتم إلا بعدما أدركوا أن ما ينتظرهم أفضل بكثير مما لقوه في حياتهم الدنيا، كل شيء بالنسبة لهؤلاء كان محسوبًا، إن كان الموت صفقة فقد ربح البيع بالتأكيد.

العجز الأسمى بالنسبة لنا نحن الأحياء يكمن في أنه لا أحد يعرف حتى الآن ما الذي حصل عليه الأموات في صفقتهم عند بيعهم هذه الحياة، وبالرغم من كون الموت الحقيقة الوحيدة على هذه الأرض إلا أنه لم يثبت أن أحدًا حتى الآن قد تمكن من فك طلاسم هذه الحقيقة المُدهشة.

عتمة القبور نور لمن أدرك الحقيقة الكامنة للموت، ومُعاذ منذ أن دخل القبور قبل خمسة أعوام وهو يُدرك هذه الحقيقة، ويعي تمامًا أنه سيعيش هنا أكثر مما سيعيش بين الأحياء الذين يملئون الحياة بالصخب، ويتصارعون على المُتع الزائلة، ويتشبثون بكل ما يمكن إدراجه تحت اسم الأشياء البالية التي لا قيمة لها، وحدهم المتشبثون بالحب هم من سيصلون يومًا إلى ما وصل إليه معاذ، الحب الذي كان السبب الأول في وجودهم، والسبب الفارق في خلودهم، هكذا يظن الفتى طوال الوقت.

عتمة القبور، بالنسبة لمعاذ أيضًا، تدل على أن النور الخارجي لهذا العالم نورٌ مُزيف، الأشياء التي تُنير الآن في كل مكان ستنطفئ، لا شيء يدوم، أعتى مصباح في هذا العالم يُمكن أن تُطفئه حفنة أمطار أو نسمة هواء شاردة، لكن نور القبور الذي يبدو لنا ظلامًا لن ينطفئ أبدًا، من يُمكنه أن يُطفئ نورًا ليس له وجود؟ لا أحد، وهكذا الموت، لن تفهمه وتنعم به حتى تعرفه وتؤمن به، معاذ ببساطة أصبح أحد عشاق الموت ومؤيديه، هو يعرفه جيدًا، وهذا كل ما تحتاجه لتفهم الهدف منه.

***

شقشقة الطيور في الصباح أمرٌ لا يليق أبدًا بما تحتويه هذه القبور التي تعج بالأحياء، معاذ الميت الوحيد بينهم، لذلك عندما سمع الصوت استفاق من النوم وجفل، ثم تلقى ضوء الصباحِ بالتدريج، شيء مُدهش أن يكون للصباح ناقوس حلول وزوال، والأكثر دهشةً أن تكون الشمس هي الأداة المُستخدمة في ذلك، لكن، من يا تُرى يتفاعل مع الليل والنهار ويهتم لوجودهما؟ من يشغله أن يعرف متى ينتهي يومٌ من حياته ويبدأ الآخر؟

انتفض الفتى المقبور حيًا ثم تناول ما بحقيبته من طعام ليسد فم الجوع، كانت قطعة من الكيك المُغلف، لم تستقر في بطنه إلا عندما أتبعها بشربة ماء من زجاجته الدافئة، وعلى الرغمِ من أن الصباح كان لا يزال في طور التكوين إلا أن معاذ فضل أن يتحرك سريعًا نحو مكان عمله، أو عالمه الخارجي بالمعنى

الأدق، هكذا عاهد نفسه قبل عدة أعوام، الصباح له والليل لإسراء.

طريقه للرحيل لم يختلف كثيرًا عن طريقه للمجيء، مشى مشية الحرص بين قبور الأحياء، كان يشعر أن وطء قبر ميت كمساس كرامة رجل حي، في كلاهما وجع من طرازٍ خاص، لكن مع الوقت، بدأ معاذ يحفظ هيكل القبور وطرقها، يُمكنك أن تعصب عينيه الآن وتأمره بالدخول أو الخروج ولن يُخطئ أبدًا في الوصول لغايته، إنها البصيرة ولا شيء غيره، ولا بد أن الفتى المسكين ما زال يذكر المرة الأولى التي دخل فيها ذلك القبر، كانت واحدة من المرات القليلة التي شعر فيها بمرارة الفقدان ولوعة الفراق وألم الحجب والابتعاد.

لأول مرة راود معاذ ذلك الخاطر المتأخر، وجد نفسه مُتسائلًا بحمق، لماذا لم أُفكر في زيارة قبر أمي من قبل؟ أجاب خاطره بأن أحدًا ما لم يُذكره بذلك الأمر قط أو يأمره به، وهنا كان السؤال الآخر المُتربص يستعد للانقضاض على مُخيلة معاذ، ولماذا لم يأخذني أبي إلى قبر أمي؟

تابع الفتى سؤاله لنفسه: هل كنت صغيرًا طوال الربع قرن الذي عشته؟ أم كنت كبيرًا إلى الحد الذي جعل أبي يتغاضى عن تذكيري بأمر كهذا؟ أأنا المُخطئ المُقصر أم أبي الذي تناسى أمي وقبرها؟ وهل نسي أبي أمي بالأساس؟ وهل كان الأمر يتطلب منه تذكيري أم أنه مجرد حدس خاطف سيمضي في طريقه!

الأسئلة التي عصفت بذهن الشاب المسكين لن تجد إجابتها مهما زاد الطلب عليها، عليه إذًا أن يلتقي بالشخص الوحيد الذي يمتلك الإجابة على سؤاله الأهم، إنه عز الدين ولا أحد غيره، ولأن الأمر يحتاج إلى السفر إلى دلجمون فإنه في نفس الوقت سيمنعه عن زيارة قبر إسراء لأيام قليلة، هي التضحية على أي حال، والحقيقة أن قوة السؤال وحاجة معاذ الملحة إلى الإجابة هونا قوة هذه التضحية، فوجد الشاب نفسه يعود إلى قبر فتاته ويودعه وداعًا يليق بالمدة التي سيقضيها بعيدًا عنه، همس في جانب القبر:

«لا تذهبن بعيدًا، أنا قادم، أعدك ألا أتأخر».

الصدفة... تلك العاصفة التي تجرف حياتنا وتُبدلها بحياة جديدة.

(٢)

على باب المقابر كان من حظ معاذ الجيد أن يجد سيارة مُتجهة إلى محطة القطار بالمدينة، هذا أمر لا يحدث بالتأكيد، ولو كان كل شيء يجري بصورة طبيعية لكان على معاذ أن يمشي قرابة نصف كيلو حتى يجد العمران والناس، فكرة غريبة جدًا أن ينفر البشر من أماكن القبور على الرغم من أنها الملاذ الأخير لهم، لو أعملوا عقولهم لأدركوا يقينًا أن الأحرى بالتشييد والتزيين هو ذلك المكان الذي سيخلدون فيه لقرون طويلة، بدلًا من بيوتهم التي يُقاتلون على إعمارها ولا يعيشون بها أكثر من قرنٍ واحد، الأغرب من هذه الفكرة أن أحدًا ما لم يمتلك الجنون الكافي ليعيش حياته الدنيا في القبور كي يعتاد عليها بعد مماته، في الحقيقة، المكوث في القبور عودّ معاذ أن يُفكر في أشياء أغرب من هذه.

مد معاذ يده أمامه فرآه السائق وتوقف، حقًا إنها واحدة من أغرب الصدف التي ستحصل عليها في حياتك، تخرج من المقابر لتجد سيارة تقترب على بُعد أمتارٍ فتشير لها وتتوقف دون أي عناء، لكن معاذ في الواقع لم يعد يلتفت لصدفٍ كهذه، أصلًا لم تعد الحياة قادرة على إبهاره كما كانت تفعل من قبل.

دخل معاذ السيارة وجلس في الكرسي الخلفي دون أن يأبه بالسائق، بدا وكأنه يمتطي سيارته الخاصة، وكأن الرجل الجالس على مقعد القيادة ليس في الحقيقة سوى سائقه الخاص الذي يأتي خصيصًا في هذا الوقت وهذا المكان لأجله، لم يكن معاذ يشعر بذلك أو يعنيه، لكن السائق أدركه دون تفكير أو إعمال عقل.

كان السائق، حسبما يبدو من هيئته ولحيته ذات الشعيرات القليلة البيضاء، على مشارف الستين، استرق النظر إلى معاذ من مرآته السحرية أعلى وسط السيارة، بينما الراكب المُتعجرف، كما بدا للسائق، لم يُكلف نفسه حتى عناء النظر إلى سائقه، وإنما اكتفى فقط بالنظر من النافذة بعد أن أزاح زجاجها المُغلق بالحلزون الموجود وسط الباب، أخيرًا تذكر السائق أن عليه أن يسأل:

-«أعتذر منك، ولكن، إلى أين تود الذهاب؟»

-«إلى أبعد مكان يُمكن أن تصل إليه بالقرب من المحطة».

أجاب معاذ وسمع السائق إجابته، ولأسبابٍ تتعلق بالسائق نفسه بدأ يشعر بارتياح من سماع صوت الراكب المُتعجرف، والحقيقة أنه قد استلهم من إجابة معاذ ما لا يُمكن استلهامه أبدًا، لقد ظن أنهما قد أصبحا أصدقاء! تخيلوا أن سائقًا قد اتخذ من راكبه رفيق لمجرد أنه قد أخبره بالمكان الذي يود الذهاب إليه! عمومًا، عقّب السائق على الإجابة:

-«قريب من المحطة! أنا أصلًا يا أستاذ ذاهب إلى المحطة، بل سأتجاوزها وأذهب إلى ما هو أبعد من ذلك».

«إلى أين؟»، كان السائق يتوقع أن يسأله معاذ هذا السؤال، لكنه لم يفعل، ولم يُعر الأمر بأكمله أي اهتمام، مسكين السائق، لا يعرف أن فرصًا ساذجة كهذه ما عادت تستدعي اهتمام الراكب المُتعجرف أو تُثيره وتحسه على اقتناصها بالصورة المتوقعة، وجد السائق نفسه يُجيب سؤاله:

-«سأذهب إلى محافظ الغربية، لدي عمل هام هناك، عمومًا سوف آخذك حتى المحطة وهناك يُمكنك أن ...»

قاطعه معاذ بحمق:

-«جيد، أنا أيضًا ذاهب إلى الغربية، كم تريد من المال؟»

-مئة جنيه، هذا أقل شيء، بالطبع أنت تعرف أن الأسعار قد أصبحت...»

شعر السائق بنخسةٍ في كتفه، نظر خلفه فوجد معاذ ملوحًا بالمئة جنيه في وجهه، غريب معاذٌ، والأغرب أن السائق لم يعتقد بعد أن راكبه شخص غير طبيعي بالمرة، وأن أكثر ما يكرهه هو الحديث مع أُناسٍ أحياء، لذلك يتمنى لو يُقاطعهم في كل كلمة يقولونها، وأن يختزل من حديثهم ويأخذ زُبده فقط،

لكم تمنى كثيرًا أن يكون التعامل بينهم بالإشارات، لكم تمنى أن يتحول المجتمع كله إلى لفيفٌ من الصم، لا تُفهمهم أو تفهم منهم سوى باستخدام يديك، هكذا كان يُفكر في حلول مُجدية تُساعده في تحقيق رغبته المُلحة بالانعزال، وهكذا بدأ السائق في التعرف على راكبه المُتعجرف شيئًا فشيئًا.

-«اسمي زين، سائق بسيط، أمتهن مهنتي منذ ثلاثين عام، وأنت؟»

في الحقيقة قبل أن يُفكر معاذ في إجابة زين أخذ يتفحصه باندهاش، من وجهة نظره، ليس هناك بشر أغرب من الذين يرغبون في التعرف على أشخاص جدد، وعلى الرغم من أن التعارف في هكذا موقف لا يتجاوز كونه تعارف عابر سينتهي بانتهاء الطريق إلا أن معاذ كان يُفكر جديًا في مطالبة زين بالتوقف والنزول من سيارته، مضت أعوام كثيرة على منعه للغرباء من اقتحام حياته، وبالطبع هو لن يخالف قاعدته مع شخص لا يعني له شيء كهذا، إلا أن حاجته الملحة للتوصيلة أجبرته على مجاراة السائق الودود زيادة عن الحد، قال مُنهيًا حديثه ومُجيبًا السؤال في ذات الوقت:

-«اسمي معاذ، صحفي بجريد الاتفاق، ٢٥ عام».

كانت فرحة زين بإجابة معاذ الكافية الشافية أعظم من أن يُمكن وصفها، صاح مُهللًا وكأنه استطاع فك طلاسم أحد ألغاز العالم المُستعصية:

-«يا الله على العقل الذي أمتلكه، تخيل يا أستاذ معاذ، لقد توقعت سنك كما قلته بالضبط من مجرد النظر إليك، والأدهى أنني كذلك توقعت عملك من حقيبة اليد التي تحملها والغموض الذي يتدلى منك، قلت في نفسي إما أن يكون صحفيًا أو محاميًا، على كلٍ لقد صدق حدثي و...»

-«أنصحك أن تتوقف عن محاولة توقع البشر، فهو أمر مرهق جدًا».

-«صدقت، وأصبت جدًا».

كانت هذه المرة الثالثة التي يُقاطع معاذ فيها زين أثناء حديثه، والحقيقة

أن توقع الحماقة من معاذ أصبح أمرًا طبيعيًا، لذلك، ولأول مرة منذ بداية الطريق، وجد زين نفسه صامتًا أمام ردود معاذ.

بدد زين لحظات الإحراج بثني مرآة السيارة الجانبية والإمساك بخرقة صغيرة وتنظيف الزجاج خلال القيادة، وأخيرًا، بدأ بالطقطقة بأصابعه على مكان القيادة مع دندنة أغنية قديمة لأم كلثوم، إجمالًا، كان يفعل كل ما يُمكن وصفه بالهرب من الإحراج.

معاذ بدوره لم يترك فرصته السانحة بتأمل الطريق حوله، كان ينظر من نافذة السيارة، المفتوحة نصف فتحة، على كل شيء يُمكن النظر إليه، البيوت القديمة المُتهالكة والحقول الخضراء الشاسعة والناس بوجوههم المُعبرة، كان بوسع الشاب الذي أثقلته الحياة أن يُركب البيوت والحقول على الوجه، فمثلًا، ذلك الخمسيني الذي يرتدي جلبابًا رثًا وتملأ يده الشقوق ويُغطي وجهه نصف نظرة رضا، بالطبع مُزارع فقير، لكنه على الأقل قادر على إطعام نفسه وأولاده وتوفير فرص متواضعة لهم في التعليم والعلاج والعمل.

أما ذلك الشاب الكبير فهو عامل بأحد المصانع بكل تأكيد، ولا بد أن راتبه بالكاد يكفيه هو وزوجته وطفلته الصغيرة، والتي يخشى أن يُزيد عليها فلا يقدر على تربيتها هي ومن زادها، كانت الوجوه تنطق إن جاز التعبير، وكان بوسع معاذ أن يقرأ ويعي ما نُقش على هذه الوجوه البائسة.

-«لو كانت العربة تطير لكنا قد اختزلنا الكثير من حياتنا لأشياء أفضل وأجمل».

يقول معاذ ويأخذ مبادرة الحديث للمرة الأولى منذ بداية الطريق، لكن زين وسط حالة من الاندهاش يُقرر مجاراة الشاب المتعجرف ومبادلته الحديث، يقول مُتفلسفًا:

-«في الحقيقة لا أتفق معك هذه المرة يا سيد معاذ، ليس بوسعنا على الإطلاق اختزال الحياة، كلٌ يجري بما قُدر له، ولو كانت العربة تطير كما تتمنى لبحث الوقت عن شيء آخر لتبديد نفسه فيه، إننا إذ نبحث عن الحياة وأفضل

طريقة لاستغلالها فإن الوقت يبحث عن الموت والتبديد وأفضل طريقة لحدوث ذلك».

هذه المرة كان الاندهاش من نصيب معاذ، لم يكن يتوقع أبدًا أن يُجيبه السائق بكل هذا القدر من الفلسفة، آهٍ يا فلسفة، ما كان معاذ يظن أن أحدًا ما سوف يأتي ويُقارع يوسف الفيلسوف في فلسفته المفرطة، لا يعرف لماذا، لكن حديث ذلك الرجل بدأ يذكره بالفيلسوف، والواقع أن معاذ لم يكن يكره الفيلسوف بالقدر الذي كان يُحب أن يسمع حديثه، لذلك قرر استغلال الطريق واستحضار روح الفيلسوف من خلال ذلك الرجل الذي بدا وكأنه لا يقل كثيرًا عن فلسفة يوسف.

قال معاذ دون أن يُفكر في كيفية كون سائق مثل هذا بكل ذلك القدر من الفلسفة:

-«بالمناسبة، ما رأيك بالموت؟»

شعر زين بمزيدٍ من الارتياح وهو يرى انخراط معاذ في الحديث معه، لم يعد الراكب المُتعجرف مُتعجرفًا إذًا، أجاب بعد أن زفر وكأنه يستعد ليُلقي بإجابته بعيدًا:

-«الموت هبةٌ من السماء، تخيل أنك في حياة لا نهاية لها، كم من الوقت ستأخذ حتى تكتشف أن وجودك ليس مبررًا؟ وأنك في مكانٍ خاطئ لا أساس له، وأن كل ما جرى، وما يجري، وما سيجري، ضرب من العبث، الموت على الأقل يا سيدي يتكفل بعملية إسدال ستار النهاية في تلك المسرحية المُكررة».

لم يكن خفيًا على زين أن معاذ قد أُعجب بإجابته المُتفلسفة، لكنه وجد معاذ يسأل مُصححًا:

-«جيد، ولكن أنا لم أطلب منك وضع تعريفًا للموت، أريدك فقط أن تخبرني برأيك فيما يفعله الموت بالناس».

-«معذرةً لجهلي، ولكن ما الذي يفعله الموت بالناس؟»

-«غريب! ألم تُجرب مرارة الفقدان من قبل وتلعن الموت ألف مرة!»

-«الألم هو ما استشفيته من حديثك عن الموت الآن، وكأنك تتكلم من موضع تجربة يا سيد معاذ».

قطب معاذ ثم نظر من نافذة السيارة التي ما زال طريقها فارغًا:

-«في الحقيقة بيني وبين الموت قصة عداء كبيرة».

لم يُخفِ زين تطفله وشغفه، قال صراحةً:

-«أتمنى لو أسمعها إن كان لي الحق في ذلك!»

***

الغرباء..أشخاص يقتحمون عالمنا الخاص ثم يُصبحون بالتدريج جزءًا منه.

(٣)

تنهد معاذ ثم بدأ في سرد قصته للسائق الفيلسوف زين، حدثه عن إسراء ومذكراتها التي وجدها في القطار، حدثه عن التغيير الذي تغيره من أجلها، وحدثه عن الفيلسوف وخيانته ودوره الكبير في القصة، ثم أخبره أخيرًا عن الصدمة التي تلقاها بموت إسراء وكيف أصبح أسيرًا لقبرها بعد ذلك، كان بوسع زين أن يسمع صوت طقطقة انكسار قلب معاذ في كل كلمة يقولها، بدا وكأنه سينهمر في البكاء، لكنه لم يفعل، بالتأكيد ما زال يحتفظ بقليل من الصلابة التي تجعله يتماسك أمام الغرباء، أما زين فقد أظهر تأثرًا وردة فعل مختلفة في كل مرة يسمع فيها قصة معاذ وهي تأخذ منعطفًا مختلفًا، قال مُعقبًا بعد أن فرغ معاذ من سرده:

-«تعرف، لقد عقدت العزم من الآن أنني لن أفتح أي حديث مع الركاب، ما كل هذا الألم يا فتى؟!»

أخذ معاذ من حديثه وتابع مُتندمًا:

-«أرأيت كيف ماتت؟ وكيف ...»

قاطعه زين بحدة تعجب منها معاذ:

-«أنا لا أعني بالألم موت الفتاة أو كل ما سبقه بقصتك، الألم الحقيقي فيما فعلته بالنهاية، تقول إنك تلازم القبور منذ ما يربو عن الأربع سنوات! لما كل هذه العجلة لا أعرف، ستدخلها في يوم من الأيام للأبد، لماذا تستعجل الأمر من الآن وكأنك أنت من مِت، أصلًا عندما تقترب من الموت ستكون أكبر مخاوفك ذلك القبر الذي تلازمه من الآن».

عاند معاذ مُصرًا:

-«أنا فعلًا من مات، لقد كانت كل ما أملك في حياتي و...»

قاطعه زين من جديد:

-«إن كانت ذاكرتي قوية فأنت لم تقل إنك قد التقيت بها أبدًا، أليس كذلك؟»

أومأ معاذ بحسرة ثم قال:

-«أجل لم أرها بكل أسف».

سأل زين بصيغة المتعجب المندهش:

-«وجعلتها حياتك؟!»

أجابه معاذ بإصرارٍ وتمسك:

-«هكذا يكون الحب».

-«هكذا يكون الجنون».

بدا معاذ متضايقًا من مناقشة زين له في أمرٍ مُقدس كهذا، ليس من السهل أبدًا أن تهدم معتقدات رجل دامت لأكثر من خمس سنوات، قال يُدافع عن حبه الذي يُسفه بطريقةٍ فلسفية:

-«نعيش في هذه الحياة لنحب، وعندما نرى أشخاصًا يُخلصون في الحب نصفهم بالجنون! هل هذا عدل؟»

-«معذرة لجهلي، ولكن، من قال إنك تعيش أصلًا؟ هل أصبحت القبور هذه الأيام مكانًا صالحًا للعيش فيه؟»

-«هذه طريقتي في التعبير عن إخلاصي في الحب».

تجرأ زين وفقد شعوره بالمقامات:

-«آسف جدًا، ولكن سحقًا لك ولحبك يا سيد معاذ».

في ظروف عادية غير هذه كان من الممكن أن تحدث مشاجرة كبيرة بين معاذ وزين، إنها واحدة من المرات القليلة التي يسمع فيها معاذ من يُسيء لحبه ولا يُبادله اللكمات، قال متماسكًا:

-«من فضلك، سيطر على نفسك وأنت تتحدث عن الحب والموت».

بدا على زين التعصب من جملة معاذ الأخيرة، قال كمن يزعق:

-«لا تُقحم الموت في الأمر، أنا أحترم الموت أكثر منك، تعرف! عندما تمر بي جنازة فإنني إذا كنت جالسًا أُباشر الوقوف، وإذا كنت واقفًا أضرب عيني بالأرض في خضوع، الموت أكبر دليل على وجود الله، وإذا لم أحترم الموت فإنه ما زال ينقصني الكثير من الإيمان، لكنك تتحدث عن قصة حب فاشلة، هذه أصلًا لا تُصنف كعلاقة حب، لا أعرف من أين أوهمت نفسك بكل هذا!»

بدا الأمر وكأن زين قد قابل معاذ في هذا الصباح ليهدم له كل الثوابت لديه، كان يحدثه بقسوة، وكم كان غريبًا أن يستمع معاذ لكل حديثه هذا بالرغم من عدم اقتناعه به، قال مُتفاخرًا على غير سياق الحديث:

-«هكذا تكون قصص الحب الخالدة، فيما بعد، وكما تناقلنا قصة قيس وليلى، فإن الأجيال القادمة سوف تتناقل قصتي مع إسراء، سيتغنون بالفتى الذي قضى عمره على عتبة قبر حبيبته».

-«لا أعرف هل ما أفكر فيه صحيحًا أم لا، لكن يبدو لي أن ثمة حلقة من الحقائق مفقودة في رأسك!»

اندهش معاذ، سأل:

-«أي حلقة ومن أي حقيقة؟»

أجاب زين مُفصلًا ما يقول:

-«الحقيقة هي حقيقة حبك هذه، والحلقة المفقودة هي ببساطة أن علاقة

الحب غير موجودة من الأساس، إن علاقات الحب التي نعرفها ونقرأ عنها تكون عندما يلتقي شخصان ويقعان في حب بعضهما، لكنك لم تلتقي بفتاتك ولم تقع معك في الحب، الأمر كله يكمن في الوهم، إنك تتوهم أن ثمة علاقة حب بينك وبينها، بل إنها علاقة حب أسطورية لا مثيل لها، وأنكما قد ضربتما أعظم الأمثال في التضحية من أجل حبكما، كل هذا ضربٌ من الوهم، هذا ما يبدو لي».

كان معاذ أشبه بملاكم في حلبة يتلقى الضربات واحدة تلو الأخرى، لكنه في الحقيقة كان كمْ هائل من الصدمات لا أكثر، استوقفته كلمة الوهم فكررها بتعجب:

-«الوهم!»

تغاضى زين وتابع كالملاكم الذي لا يرحم منافسه داخل الحلبة:

-«بل دعني أُصارحك، واسمح لي بتجاوزي، من قال أصلًا أنك قد عشت هذه القصة التي قصصتها الآن، أنا لا أُكذّبك بالطبع، لكني فقط أُنبهك لشيء هام، الحقائق هي فقط الأشياء التي نعيشها، أما التي نختلقها فتُدعى أوهام، تخيل أن كل هذا لم يحدث وأنك قد اختلقته!»

كان الاندهاش يتملك معاذ ويستوطنه، والحقيقة أن جرأة زين الصارخة كانت تستحق الجزء الأكبر من هذا الاندهاش، صرخ معاذ بغضب:

-«أنت مجنون! ماذا تقول!»

-«أُقدر حالتك، وأُقدر أيضًا أن الأمر إذا كان وهمًا بالفعل فلن تكون على دراية به، في النهاية أنت ذلك الشخص الذي تعرض للإيهام، هذا طبعًا إذا كُنت محقًا، ولكي أُثبت لك صدق تأويلي والأمر الذي بنيتُ عليه حكمي فسوف أقص عليك قصة قرأتها قبل سنوات في الجرائد».

-«أي قصة؟»

أسند السائق رأسه إلى الكرسي ثم نظر من نافذته إلى الفراغ حوله، قال بصوتٍ خافت:

-«قصة المسكين حسن العجمي».

***

تبدأ قصة حسن العجمي، حسبما يدّعي زين، من لحظة وقوعه في الحب، هكذا تبدأ أغلب القصص ذوات النهايات الحزينة بشكل عام، فكل ما فعله هذا الرجل أنه أحب فتاة لم يتمكن من الزواج منها، كان يُحبها حد الثمالة، وكانت هي على الجانب الآخر لا تعرف بوجوده من الأساس، على العموم، مضى العجمي في حبه ومضت الفتاة، والتي كانت تُدعى بدور، في تغافلها عن هذا الحب، ومن هنا بدأ المرض يتفاقم.

تزوجت بدور واستمر العجمي على نفس الحالة، أنجبت بدور ولا زال الرجل غارق في حبها، كان لا يرى أي شخص آخر في هذا العالم سواها، كان لا يرى نفسه على الأقل، بدا مُترنحًا، أهمل حياته، ومن سوء حظ أنه لم يكن يمتلك أهل أو أصدقاء يردونه عن ذلك الطريق الذي سلكه، كان بمقدوره بتر الحب منذ اللحظة الأولى لكنه لم يفعل وتهاون مع الأمر، وهكذا تفشى الحب حتى انقلب إلى داء الوهم!

يُتابع زين: «بدأ حسن يعتقد أن بدور قد تزوجت منه هو، وأن أطفالها ما هم إلا أطفاله، عاش مع هذا الوهم فكان أكثر من مرة يُسجن بسبب محاولة اقتحام بيت المرأة المتزوجة بدور، أو محاولة اختطاف أطفالها من المدرسة، أطفاله كما كان يعتقد، وفي كل مرة كانت تتنازل بدور وزوجها عن المحضر رأفة بحال المسكين كان يعاود الكرة من جديد، لم يكن مُدركًا لما يفعله، وكان أفضل وصف يُمكن وصف هذا الرجل به هو المجنون، مجنون الحب على وجه التحديد.

وهم العجمي لم يتوقف، بل بدأ ينتشر وينتشر حتى قضى تمامًا على حياته

الواقعية الحقيقية، لم يعد يعرف شيئًا عن العالم بخلاف بدور، زوجته من وجهة نظره، وأطفالها، أطفاله من وجهة نظر، لم يتمكن من إقحام نفسه في حياتها الحقيقية ففعلها في حياة أخرى وهمية، وكان بمقدور أي شخص يتعامل معه أن يدرك يقينًا أن هذا الرجل فعلًا يُصدق نفسه، كان يحتضر، والداء الوحيد الذي شُخص به هو الحب.

تدهورت الحالة أكثر وأكثر، في يوم من الأيام لم يخرج حسن العجمي من منزله، استمر ذلك الوضع لثلاث لياليَ متتالية، لم يعد يضايق بدور وأطفالها، وكان هذا الأمر غريبًا بالنسبة لأهل المنطقة مما دفعهم لاقتحام شقته ليجدوا جثته مُعلقة في سقف غرفة النوم المطلة على منزل بدور، لقد شنق نفسه، والأدهى أنه قد كتب كل ما يمتلكه في وصيته للشخص الوحيد الذي يحبه، زوجته بدور، أو هكذا كان يظنها».

يُعقب زين: «العجمي المسكين عاش مريضًا بالوهم ومات عليه، سمح للداء بالانتشار ولم يتوقف أبدًا للبحث عن الدواء الملائم، ربما كان كل ما يحتاج إليه أن يعود للحياة الواقعية ولو للحظة واحدة، أن يُفكر مرةً أخرى في الأمر، لكنه لم يفعل، وفي المشرحة، عندما كان الطبيب يضع سببًا للموت كتب «جرعة زائدة من الحب».

صمت زين بما يوحي أنه قد انتهى من القص، ولم يكن خفيًا على معاذ أن ذلك السائق الغريب يمتلك طريقته المميزة جدًا في سرد الحكايات، من أول جملة قالها في قصته بدا وكأنه يتحدث عن نفسه، يتحدث عن شيء عاشه ويعرفه، وليس مجرد مقال عابر قرأه في بعض الجرائد كما يدعي، لكن معاذ لا ينكر أبدًا أن القصة قد زلزلته وأوجعته، بيد أنه لن يعترف بذلك ويُثبت للسائق ما يُريد إثباته، قال مُتبلهًا:

-«وما علاقة كل هذا بي؟»

سمع زين سؤال معاذ ثم بطريقة فجة، تتجاوز الوقاحة، أوقف السيارة ونزل

وترجل ناحية بابها الخلفي وفتحه دون أن ينبث بكلمة وكأنه يطلب من الفتى المغادرة، لم يُدرك معاذ ما حدث فشرع زين بالتوضيح قائلًا:

-«آسف، كما هو واضح سيد معاذ، انتهت الرحلة وانتهى حديثنا معها».

نظر معاذ حوله فوجد لافتة الترحيب مكتُوبٌ عليها الجملة المعتادة في أول كل قرية:

«مرحبًا بكم في دلجمون».

إذًا لقد انتهت الرحلة كما يقول زين، وأي ردة فعل من معاذ بخلاف النزول من السيارة فسوف تكون وقحة بدرجة أكبر من درجة وقاحة زين المتفجرة في حديثه، لذلك لم يُفكر معاذ كثير في النزول والترجل، لكن قبل أن يأخذ انطباعات وجه زين وجده داخل سيارته يُديرها عائدًا من الطريق الذي جاء منه.

مع ابتعاد زين شيئًا فشيئًا عن أنظار معاذ كان يشعر أن شيء ما غير طبيعي بالمرة قد حدث للتو، لقد وقعت معجزة صغيرة إن جاز التعبير، الأمر من بدايته، منذ السيارة التي جاءت في الوقت المحدد والمكان المحدد، كان يبدو كمعجزة، شيء ما رتب هذا كله، لكن المدهش أكثر من وجهة نظر معاذ أن شيء ما قد اهتز بداخله، هو الآن ليس كما كان قبل ساعاتٍ قليلة، تحديدًا قبل أن يركب سيارة زين الغريب هذا.

اختفى زين تمامًا من الطريق، لقد ابتعدت السيارة جدًا، معاذ الآن لا يزال وحيدًا في منتصف ذلك الممر المؤدي إلى دلجمون، سيدخل، لكنه ليس كما تركه أول مرة، شيء ما يجب إصلاحه، لكن ما هو ذلك الشيء؟ هو لا يعرف، ولن يعرف بالسهولة التي يتخيلها، لكنه سيحاول بكل تأكيد، والحقيقة أن أفضل سبيل لتلك المحاولات هو ما قرر صباح اليوم أن يُقدم عليه، مُلاقاة الشخص الوحيد المتبقي له على قيد الحياة، ببساطة، ذلك الشخص هو والده، عز الدين.

الصدمة..أمر لم تكن تتوقعه أو لا تُريد توقعه من الأساس.

(٤)

لم تتغير دلجمون كثيرًا مذ تركها معاذ، ما زالت كما هي، تعج بالخضر والناس الطيبين، وجوههم تكشفهم، حتى لو ابتسموا أمامك ألف مرة فما زالوا يموتون من داخلهم بالتدريج، مُعاذ كان واحدًا منهم، ولم يكن من الصعب عليه أبدًا اكتشاف ذلك، ثم إن جلوسه وسط الأموات بالقبور منحه نظرة أخرى مختلفة للموت، ليس من اللازم أن تموت جسديًا وتُدفن كي يشهد الآخرون بذلك، يكفيك فقط أن يخذلك العالم كل يوم بالتدريج لتُجرب الموت في كل لحظة تعيشها.

كان معاذ يتلقى ترحيب المارة بابتسامة مُتكلفة، بات من النادر جدًا أن يُرى معاذ في دلجمون خلال الخمس سنوات الأخيرة، كذلك من الصعب أن يدفعه أي شيء للابتسام على هذه الأرض، لكنه لم ينس نصائح والده بألا يُعطي الناس منه إلا كل خير، لذلك كان يُجبر نفسه على الابتسام في وجوههم، والحقيقة أن أغلبهم كان يعرف بقصة معاذ وما حل به، لذلك كان الأمر أسهل ما يكون، أنت تكذب، وأنا أعرف أنك تكذب، وأنت تعرف أني أعرف بأنك تكذب، ما المشكلة لو سارت كل الأمور في هذا العالم على نفس المنوال؟

أخيرًا وصل إلى المنزل، كان كما هو منذ تركه في المرة الأخيرة، من المُستبعد أن يتغير شيء في بيوت سكان دلجمون، حتى أوعية السقاية والطعام تظل كذلك حتى آخر العمر، عمرها أو عمر من يستخدموها، لكن الشيء الوحيد الذي لاحظ معاذ تغيره في البيت هو والده، فقد تحسنت صحته، على الأقل أصبح قادرًا على التحدث والنهوض من مكانه، قبل خمسة أعوام كان معاذ يعتقد أنه سيُتلفَن في مرة من المرات ليجد أحدهم يخبره بأن عليه الحضور لتشييع جثمان والده، كان يخشى هذه اللحظة أكثر من أي شيء آخر في هذا العالم، لكن اللحظة لم تأت، على الأقل حتى الآن، فوالده واقف أمامه ويملأ كوبًا من الماء ليشربه.

التفت الشيخ عز الدين بعد أن ملأ كوبه واستعد لشربه، فاجأه وجود معاذ،

وضع الكوب قبل أن يأخذ شربته وصاح فرحًا وهو يسير باتجاه معاذ ويحتضنه:

-«معاذ، متى جئت ولماذا لم تُخبرني؟»

بالرغم من أن معاذ لم يعد يطيق العالم أو يقبل الاحتكاك به إلا أن والده كان الاستثناء الوحيد من هذه القاعدة، راح يحتضنه بحب واشتياق ثم قال:

-«كالعادة، وددت أن أفاجئك».

-«ولا تزال بارع كعادتك في فعل ذلك، أخبرني كيف حالك؟»

بقليلٍ من الرضا أجاب معاذ وهو يجلس مع والده على أريكة تتوسط البيت:

-«ما زلت كما أنا».

-«وأنا كذلك، لا أزال كما أنا، يبدو أننا سنبقى على حالنا طويلًا».

قال معاذ مازحًا:

-«لكني أراك بخير!»

قهقه عز الدين:

-«أنا كذلك دائمًا، الحمد لله، وكيف حال عملك؟»

-«لا جديد يُذكر، ما زلت في جريدة الاتفاق بقسم الحوادث، الفارق الوحيد أن راتبي قد زاد ثلاثمئة جنيهًا!»

ابتسم عز الدين فرحًا بولده:

-«هذا جيد، الأمر الوحيد الذي لا يُعجبني عملك في قسم الحوادث، ألم تجد قسمًا أفضل من هذا للعمل فيه!»

- «الحقيقة أنني اخترته، الحوادث تعني أنك ستعيش في ألم، ولا أُكذبك يا أبي

أنني قد تعودت عليه وأدمنته».

نظر معاذ فوجد والده وقد بدت عليه ملامح الحزن، قال مازحًا يمحو الحديث ويصنع آخرًا:

-«أخبرني أنت الآن عن سر تحسن صحتك إلى هذا الحد!»

ابتسم عز الدين حتى كاد يضحك:

-«الأمر أبسط مما تظن، سألت الله الشفاء فأعطاه لي، وهل من الممكن أن يبخل الله على عباده بأمر كهذا!»

هم معاذ بالنهوض قائلًا بنبرةٍ حزينة:

-«ليت الله يحبني مثلك، المهم، سأذهب للنوم الآن لأتخلص من عناء السفر، وبعده أُريدك في أمر هام».

-«حسنًا، وأنا أعدك أن تجد الطعام الذي تُحبه عن استيقاظك».

همَّ معاذ بالانصراف بينما أخذت نظرات أبيه المُشفقة تتبعه حتى دخوله الغرفة، وفي الغرفة بدأ معاذ في مقارعة النوم، هذه عادته التي اعتاد عليه، أي نوم خارج مقابر شرنوب يحتاج الكثير من الوقت لهزيمته، والحقيقة أن معاذ كان يمتلك تحت وسادته ما يُمكن من خلاله هزيمة هذا النوم العنيد، مد يده باحثًا عن الشيء الأهم في سنواته الخمس الأخيرة.

أمسكت اليد العمياء بالمُذكرات، أخرجها ثم احتضنها بعمق، ثم فتحها ليقرأ واحدة من أيام إسراء القليلة التي سجلتها داخل المذكرات، وعلى الرغم من أن معاذ كان يحفظ كل كلمة موجودة داخل دفتي هذا المخطوط إلا أنه كان لا يجد مللًا على الإطلاق في إعادة قراءته من جديد، كان ثمة حياة كاملة يحتفظ بها بداخله، فتح المذكرات على صفحة يعتليها تاريخ السابع عشر من أبريل ٢٠١٢، ثم بدأ القراءة.

١٧ أبريل ٢٠١٢

شرنوب - دمنهور

تتوهمين يا رُقيةُ، هذا الفتى لا يُحبك

أوجعتني صديقتي رُقية هذا الصباح بقصتها مع فتىً تدّعي أنها تُحبه يُدعى حُسام، تقول إن حُسام هذا قد أوقفها ذات ظهرٍ حارق وصارحها بحبه، وتقول أيضًا أنه لولا أن كلمات حسام قد أسرتها لكانت قدْ صرخت وجعلت منه تسليةً لأهالي القرية في هذا الحر، لكنها لم تفعل، أو لم تستطع فعل ذلك، والحقيقة أن أي فتاة منا لن تفعل إلا ما فعلته رقية، لقد غادرته دون أن تنطق بأي كلمة أو تُعطيه إماءة أو تلويحه بإصبعها، تجاهلته، أو هكذا ظنت أنها قد فعلت.

في البيت، كما تقول رقية، لم تتمكن من نزع حسام عن تفكيرها لحظة واحدة، كان يزورها، لا، بل كان ضيفًا مُقيمًا معها بعقلها، وكان كذلك واقفًا على باب قلبها ينتظر الولوج، أي فتىً هذا الذي يأسر فتاة من بضع كلمات طائشة، وأي فتاة هذه التي تسقط بكل هذه السهولة، وأي حب هذا الذي يأتي بهذه الطريقة، هل من المعقول أن يرى شاب فتاة من ظهرها فيهرول إليها ويوقفها ثم يقول لها ببساطة: «أنا حبك!» هل هذا هو الاستغلال الأمثل لوضعية الحب من نظرة واحدة، وأي نظرة ظهر هذه التي قد تُسقط شابًا في السابعة عشر من عمره! تتوهمين يا رُقية صدقيني.

كانت حالة الهيام التي تعيش بها رُقية مُستفزة لي، والحقيقة أن الاستفزاز الأكبر كان يكمن في قدرة شاب في السابعة عشر من عمره على بعثرة كيان فتاة من المفترض أنها قد وصلت لمرحلة النضج، إننا الآن في مرحلة الثانوية، وإذا كان حسام هذا قد أنجز شيء فهو أنه استطاع تشتيت انتباه رقية وشغلها عن دروسها ومذاكرتها، يُمكنني أن ألحظ ذلك بشدة من درجات مادة الأحياء.

الأحياء يا رقية التي كنتِ تحصلين في اختباراتها على الدرجة النهائية أصبحتِ

تجتازين نصف درجاتها بالكاد، أصبحتِ مُشتتة وصامتة طوال الوقت، أما حُسام، بطلك المزعوم، فلم يظهر ولو مرة واحدة بعدما فعل ما فعل، تتوهمين يا رقية صدقيني، هذا الفتى لا يُحبك.

في الواقع لا أعرف هل كان يقصد الفتى التلاعب بالمسكينة رقية أم لا، لكن أن توقف فتاة في قارعة الطريق وتقول: «أنا حسام، وأحبك»، ثم تنصرف بعدها بهدوء ولا تعد، فهذا أمر لا يُمكن وصفه سوى بالتلاعب، المؤسف حقًا أنه قد اختار أكثر فتاة يمكن التلاعب بها في شرنوب، فلو كنت أنا من أُوقفت لكنت...

ما الذي كنت سأفعله يا ترى؟

صدقًا أنا أضعف منك يا رقية، جميعنا ضعفاء، تُبعثرنا الكلمات وتأسرنا، أنا أكذب، لو كنت مكانك لسقطُ في البئر، حتى ولو لم يرق لي الفتى فإن كلماته وجرأته، كل هذه أسلحة قادرة على زلزلة أي شيء على هذه الأرض، فما بالكم بقلب مهمته الأساسية التقلب على أتفه الأمور، أنتِ لا تتوهمين يا رُقية، أنتِ واقعة في الحب، أنتِ محظوظة، واللعنة على الأحياء التي ساءت دراجتك بها منذ ذلك اليوم، اللعنة على أي شيء يحجبنا عن الحب، اللعنة على الحب نفسه وما يفعله بنا، اللعنة على حاجتنا إليه، اللعنة عليّ، لأنني حاولت أكثر من مرة إقناعك أنك تتوهمين.

زارني طيف الحب مرة واحدة في حياتي، كانت في المدرسة كذلك، لكنني كنتُ صغيرة، مجرد طفلة في الصف السادس الابتدائي، وفي لحظة ضعفٍ خاطفة وجدتُ نفسي هائمة بفتى في الصف المجاور لصفنا، أصعب شيء أن تقع في الحب مع شخص أقل منك في أي شيء، وهذا الفتى -لحظي السيء- كان أبله طفل في المدرسة، لم يكن غبيًا غير قادر على الفهم، بل كان متُكاسلًا ومُهملًا، فكنتُ أحصل على الدرجات النهائية وكان هو لا يمتلك أي درجات من الأساس، لكني في النهاية كنتُ أحبه، هذا قلبي، وهذا حكم القدر به.

مرة سألت أبي عن الوقت الذي من المفترض أن يبدأ الشخص فيه التعرف على

الحب فصعقني عندما قال إن الناس الطبيعيين يعرفون الحب منذ يومهم الأول، وأنا الحمقاء التي كنت أظن في البداية أن وقوعي بالحب مع شخص وأنا في الثانية عشر ضربٌ من الطفولة، عمومًا، لم يكن حبي الحقيقي، ولم يكن ذلك الفتى نصيبي من الحب، عرفتُ ذلك عندما دخلت المرحلة الإعدادية وبعدها المرحلة الثانوية، ابتعد عن عيني فأبعدته عن قلبي، وأنتِ كذلك يا رُقية، أظن أن حبك الحقيقي لم يأتِ بعد، انتظري، ولا تقلقي، إني مُنتظرة صبح الحب معك، أليس الصبح بقريب يا رقية؟

***

لا تتوقع، ولا تُحاول التوقع، صدقني، هذه الحياة لا يوجد بها ما يصلح للتوقع.

(٥)

بعد ثلاث ساعات

نام معاذ واستيقظ، جلس مع والده وتناولا الطعام، كل شيء مضى سريعًا وكأن للوقت أجنحة، وكأن الحياة تُسابق نفسها لتنتهي، والحقيقة أن معاذ كان دائمًا ما يسأل نفسه سؤالًا منطقيًا بعض الشيء، هل الحياة تفنى بهذه السرعة إشفاقًا علينا أم مللًا وضجرًا منا؟ كان يُكثر من تساؤله، ولم يكن يعرف أبدًا متى سيجد الإجابة المُثلى لهذا السؤال!

أزالا بقية طعامها من الطاولة، هكذا تعودا على التشارك في فعل كل شيء، أمسك معاذ بزجاجة مياه غازية وجدها في الثلاجة، فتحها ثم أفرغ كوبين منها، مد الأول لوالده ثم أمسك بالثاني وارتشف منه، قال مُعلقًا:

-«هذه أفضل نصف ساعة قضيتها خلال السنة الماضية!»

جاراه والده مازحًا:

-«نصف ساعة! لكنك هنا منذ الظهيرة!»

قهقه معاذ وقد فهم مزحة والده، قال:

-«تعرف أنني أقصد النصف ساعة التي تناولنا بها الطعام».

بدا السياق مناسبًا لعز الدين كي يُقحم ما يُريده من كلمات، قال بلغة مازحة ونية جادة:

-«لو بقيت هنا معي لجعلت أوقاتك كلها كتلك النصف ساعة الماضية».

-«وهذا ما كُنت أريد أن أُحدثك به».

قال عز الدين مُتلهفًا:

-«تقصد أنك ستبقى!»

-«أريدك أن تُجيبني أولًا على سؤال هام، هل يُمكن أن يتمكن الوهم مني؟»

كرر عز الدين باندهاش:

-«الوهم!»

بدأ معاذ يشرح حديثه ويُفسره، قال:

-«أعني أن يُخيل لي، أو أتوهم، أن أشياء تحدث وهي في الحقيقة لا تحدث، فقط لأنني أُريدها أن تحدث!»

بدا على عز الدين الاندهاش:

-«ما هذا الكلام الذي تقوله؟ هل ثمة أحد أصلًا يمتلك عقل معاذ عز الدين؟ ألا تقرأ الصحف وترى أخبارك التي تُزينها، ألا تعرف أن أغلب آباء هذه القرية يحلمون أن يكون أبناءهم مثلك!»

بدا مُعاذ فخورًا بحديث والده عنه ومدحه فيه، من الممكن أن يُثني عليك أي شخص، لكن الثناء عندما يجيئك من والدك فإنه يكون ذا رونق خاص، لكن مُعاذ لم يُفرط في ذلك الشعور، وإنما صارح نفسه ووالده قائلًا:

-«وما قولك في مكوثي في القبر؟»

تلكأ عز الدين بعض الشيء وكأن أحدهم قد حاصره من كافة الاتجاهات، قال مُتحججًا:

«هذا أمر آخر، أنت تشعر بالذنب تجاه شخص مُعين وتعتقد أنك تُكفر عن ذنبك بهذه الطريقة، لا أقول إنني لو كنت في مكانك لفعلت ذلك، ولا أقول كذلك أن ما تفعله صحيحًا، لكنه كما ذكرت، طريق مُناسب من وجهة نظرك للتكفير عن ذنبك، ولا أُخفيك أنني في بعض الأوقات أشعر بالفخر تجاه ما

تفعله بحقها».

مال معاذ قليلًا بدفة الحوار صوب إسراء وسأل والده سؤالًا آخر:

-«وهل تعتقد أني قد أذنبت بحقها؟»

-«هذا أمر يرجع إليك، أخبرتك أكثر من مرة أنني لا أراك مُذنبًا، وأن موتها كان مُقدرًا بهذه الطريقة وفي ذلك الوقت، لكنك لا تزال تعتقد بأنك أذنبت، وبالتأكيد لا أحد يُمكنه محو ذلك الشعور بالذنب، لكن ثق تمامًا أنها لو رأتك لأحبتك، ولما شعرت أبدًا بالغضب منك».

كان حديث عز الدين يُريح مُعاذ ويمحو من داخله تأثير حديث زين الغريب، سأل مرة أخيرة على سبيل التأكيد:

-«إذًا أنت تؤكد أنني لا أعيش الوهم، وأنني أذهب إلى قبرها كل ليلة على مدار السنوات الخمس السابقة؟»

قهقه عز الدين متعجبًا من سؤال معاذ الذي بدا وكأنه غير منطقي، قال وهو يفرغ من قهقهته:

-«بالتأكيد يا بني، وهل هذا أمر يحتمل التشكيك فيه، الجميع يعرف أنك منذ أربع أو خمس سنوات لم تغادر قبرها لليلة واحدة، وأنك ترتمي أمامه حتى الصباح وكأنك تتمدد على سرير من الحرير».

التقط معاذ أنفاسه وبدأ في استجماع قواه العقلية التي شككه فيها السائق المجنون زين، قال بارتياح:

-«أرحتني، لقد قابلت شخصًا مجنونًا اليوم يُدعى زين، جعلني أظن أنني مجنونٌ مثله، وجعلني أتشكك كذلك في أن كل ما مضى لم يكن سوى مجرد أوهام واهية».

قال عز الدين مازحًا:

-«ربما يكون الوهم الحقيقي أنك قد التقيت أصلًا بذلك الشخص الذي يُدعى السائق زين».

ضحك معاذ من مزحة والده ثم تذكر فجأة الأمر الذي جعله يترك قبر إسراء ويعود إلى دلجمون، سأل مجددًا:

-«بالمناسبة يا أبي، أردت أن أسألك دائمًا عن مكان قبر أمي، لماذا لم تحدثني عنه من قبل؟ أود زيارته!»

بدت الصاعقة على وجه عز الدين الذي تجمد في مكانه من وقِع السؤال، قال مُتماسكًا:

-«ما الذي تقوله يا معاذ؟»

لاحظ معاذ دهشة والده وصدمته المُبالغ فيها، بدأ القلق يتسلل إليه فقال مُستفسرًا:

-«ما الخطأ في ذلك؟ أُريد زيارة قبر أمي!»

كانت صدمة عز الدين تشتد وتشتد، والحقيقة أن مُعاذ كاد يُجن مما ألم بوالده فور مُفاتحته بأمر زيارة قبر والدته، أما عز الدين فقد بدا وكأنه ينتقي كلماته التالية بحرص:

-«ما الذي تقوله يا بني؟ هل أنت جاد حقًا!»

بنفس الدهشة بادل معاذ والده الحديث:

-«ما الذي تقوله أنت يا أبي؟ هل أجرمت بأنني أردت زيارة قبر والدتي، أليس من حقي ذلك الأمر!»

لم يعد عز الدين يملك متسعًا من العقل كي يتعقل وينتقي كل كلماته القادمة، قال مُنفجرًا:

-«وما الذي كُنت تفعله طوال السنوات الماضية في مقابر شرنوب!»

بدأ القلق يتملك معاذ ويتغلغل في كل جزء منه، ألقى سؤاله بخوف:

-«وما علاقة مقابر شرنوب بأمي؟»

تصاعدت وتيرة الاندهاش أكثر وبدأت تتحول تدريجيًا إلى خوف، سأل عز الدين:

-«هل هذا وقت المزاح يا بني؟ أخبرني كي أضحك وينتهي الأمر لأنني بحق بدأت أشعر بالقلق».

اعتدل معاذ أكثر في جِلسته، أراد منح الأمر اهتمامًا أكثر كي يُجبر أبيه على إنهاء خدعته، قال:

-«صدقني أنا الذي يشعر بالقلق الآن، ما الرابط بين قبر إسراء في شرنوب وقبر أمي؟»

عاد الأمر إلى عادته الأولى في صورة دهشة مفرطة، سأل عز الدين ثانيةً:

-«لحظة واحدة، من تكون إسراء هذه التي ذكرتها للتو؟»

كان السؤال بمثابة القشة التي قصمت ظهر معاذ، إذًا، عز الدين لا يمزح كما كان يعتقد معاذ في البداية، إنه جاد جدًا، وهذه الجدية في الواقع كانت كفيلة ببعثرة كل الحقائق في ذهن الفتى المسكين، أجابه بخوف:

-«إسراء الفتاة التي عثرت على مذكراتها قبل خمس سنوات وحدث ما حدث من أحداث حتى اكتشفت في النهاية أنها ميتة فقررت أن أستكمل حياتي بالقرب من قبرها، أنت تعرف كل ذلك يا أبي، لقد أخبرتك به، في الواقع الجميع يعرف بذلك، هذه أشهر قصة حب في البلاد حاليًا».

كان عز الدين مُندهشًا من كلام معاذ لدرجة أنه كان يأخذ وقتًا للتأكد من أن

ولده يقول ما يسمعه الآن:

-«يا معاذ هذه أول مرة أسمع منك اسم إسراء هذه، ولا أعرف شيئًا عن كل ما تقوله الآن، ولا زلت مُصرًا على رأيي بأنك تمزح الآن وأنتظر منك أن تُعلن موعد انتهاء المزحة!»

استدعى الأمر وقوف معاذ ورفع درجة صوته، قال منفجرًا:

-«بل أنت الذي تمزح، كيف يُعقل أنك لا تعرف كل هذا!»

قام معاذ من مكانه ثم اتجه صوب غرفته، لاحقه عز الدين بصوته:

-«إلى أين أنت ذاهب؟»

أجاب عز الدين وهو يبتعد بصوته داخل الغرفة:

-«انتظرني للحظة واحدة، أنا قادم بالدليل على صدق ما أقول».

لحظات وعاد معاذ من غرفته وهو يحمل المذكرات، وضعها في حجر والده ثم جلس بموضعه:

-«تصفح هذه المذكرات وستفهم كل شيء، وانظر أيضًا إلى الصورة الموجودة بداخلها، إنها صورة إسراء».

فتح عز الدين المذكرات وتصفحها ثم أمسك بالصورة في ذهول ونظر إلى معاذ في استغراب:

-«ما هذا يا بني؟ أنا من أعطيتك هذه المذكرات قبل خمسة أعوام!»

ما كان واضحًا على وجه معاذ بعد ما نطقه عز الدين كان أكبر من الدهشة بقليل، يُمكننا القول إنها صاعقة:

-«ما الذي تقوله؟»

-«إنها مذكرات والدتك، والصورة كذلك صورة والدتك».

أمسك معاذ بالمذكرات ثم أخذ يتصفحها سريعًا وقد بدأ الذهول يأخذ مكانه على وجهه أيضًا، بدت المذكرات وكأنها جديدة على الشاب المسكين، كان الحديث مخالف تمامًا لما يقرأه ويحفظه منذ خمس سنوات، شيء واحد فقط لم يختلف، الصورة، والحقيقة أن الصورة بالرغم من كونها لفتاة في العشرينات من عمرها إلا أن الصورة نفسها كانت بالية وقديمة، فعلى ما يبدو أنها قد التُقطت قبل عشرين عام على الأقل، كان معاذ لا يجد الكلمات المُعبرة عما يشعر به، لكنه في النهاية وجد نفسه يسأل بحنق:

-«أعطني تفسيرًا لذهابي لقبر فتاة تُدعى إسراء في شرنوب!»

باندهاش جديد سأل عز الدين:

-«ومن قال إنك تذهب إلى قبر فتاة تُدعى إسراء في شرنوب؟»

-«إذًا قبر من تحديدًا الذي أعكف على زيارته طوال السنوات الماضية؟ لقد قلت ذلك بنفسك قبل قليل!»

حاول عز الدين أن يُقرب الأمور، قال مُفصحًا عن الحقيقة الصادمة:

-«إنه قبر والدتك، تلك التي تسألني الآن بغرابة عن قبرها وكأنك لا تحفظه شبرًا بشبر!»

بدأ معاذ يتقبل الصدمة، أو على الأقل يتقبل التحدث عنها، في النهاية لا يُمكنه التملص طوال الوقت، سأل:

-«ولماذا قد أمكث بجوار قبر أمي كل هذه الفترة؟»

انتكس عز الدين، هذه المرة كان يهرب من الإجابة، ولو كان الحديث في موضعٍ آخر لكان الهروب منطقي لكن الآن بالذات لا وقت لشيء خلاف المواجهة بالحقائق، قال بنفسٍ واحد:

-«لأنك تشعر بالذنب تجاهها».

صُعق معاذ من إجابة والده التي لم يكن يتوقعه، سأل السؤال الذي يُفسر تلك الصدمة:

-«وما الذي يجعلني أشعر بالذنب تجاه أمي؟»

تردد عز الدين قبل أن يقول بثقةٍ جارفة:

-«لأنك تعتقد بأنك قد قتلتها».

***

الانكسار..شعور سيراودك عندما يتحالف العالم كله ضدك.

(٦)

كان مُعاذ مُبعثرٌ تمامًا بعد لقاءه الأخير مع أبيه، ادعى الإرهاق وأنهى الحديث ثم ولج سريعًا إلى غرفته، كان من الصعب جدًا عليه أن يستمع لبقية الحديث، لم يكن بحاجة أبدًا إلى مزيد من الحقائق الصادمة، يكفي ما سمعه وزلزل له كيانه وجعله يُعيد في ذاكرته خمس سنوات ماضية، خمس سنوات عاشها في قصةٍ ادعى أنها قصة حب بامتياز، والآن يأتي والده ليُخبره بأنها قصة فتى مجنونٍ لا أكثر، هل معاذ مجنون حقًا؟

بدأ يُعيد شريط الأحداث حسبما يذكر، لقد عثر على المذكرات أولًا، ثم قابل صديقه يوسف في الجامعة، ثم بدأ يسقط في الحب مع قراءة المذكرات حتى صارح يوسف بالأمر، والذي بدأ بدوره في مساعدة معاذ على تنفيذ كل ما جاء بالمذكرات، وفي النهاية، وبعد تنفيذ كافة شروط إسراء، بدأت تتجلى بعض الحقائق أمامه.

أول تلك الحقائق كان موت إسراء وآخرها خيانة يوسف له، إذًا، أين يمكن أن يكون الجنون قد تسلل إليه؟ متى فعل؟ ومتى أخبره والده أصلًا أن ثمة قبر لوالدته في شرنوب، وما الذي يقصده بشعوره بالذنب تجاه والدته لأنه قد قتلها؟ كيف أصلًا يقتل والدته وهو لم يرها من قبل! ولماذا قد تذهب والدته لتُدفن في شرنوب؟ ما علاقة تلك البلدة بدلجمون؟

بقليلٍ من التعقل بدأ معاذ يتصارح مع نفسه في بعض النقاط، أولها ما يتعلق بقتله لوالدته، فلو سردنا الأمر من بدايته فسنجد أنه مع وصول الشاب المسكين معاذ للحياة ودعت والدته نفس الحياة، حدث ذلك تقريبًا في نفس اللحظة، ولمزيدٍ من التفصيل، وبكثيرٍ من الحقيقة التي يخشى أن يُصارح نفسه بها، لقد ماتت أمه، والتي كانت تُسمى زينب، وهي تلد ابنها الوحيد معاذ، والواقع أننا إذا نظرنا إلى الأمر من زاوية المُتربصين فسوف تكون شهادتنا على واقعة كهذه هي أن معاذ الشؤم قد قتل والدته وهي تلده، وبالطبع في هذا تبرير منطقي لأن يشعر بالذنب تجاهها ويلزم قبرها للأبد.

من جهة أخرى، ليس هناك مجال للشك في بقية الأحداث التي وقعت معه، فبالتأكيد التقى مع الفيلسوف، وبالتأكيد عثر على مذكرات إسراء، وبالتأكيد قرأها ونفذ كل سطر مكتوب بها، الأمر الذي يُثير جنونه الآن، كيف انقلبت المذكرات فجأة وأصبحت شيئًا آخر مختلف تمامًا عما قرأه من قبل؟ كيف ومتى على وجه التحديد؟ ولماذا لا يستطيع العثور على رقم يوسف الفيلسوف في هاتفه؟ ولماذا أصلًا لم يعد هناك أي وجود مادي لكل شيء حدث معه خلال السنوات الخمس الماضية؟ إذًا، أصبحت الأسئلة هي لماذا ومتى وكيف، ثم أضف عليهم أين، لأنه لا يعرف أيضًا أين يُمكن أن يُغير كل هذا العبث ويُعيد الأمور إلى نصابها!

لأول مرة شعر معاذ أن لديه رغبة مُلحة في النوم، أي أنه لم يطلب النوم ويتذلل إليه مثلما يحدث دائمًا، وإنما زاره النوم بنفسه وأطبق عليه، ربما أرهقه التفكير فيما حدث خلال الساعات السالفة ودمر له حياته وحقيقته، أو أن النوم نفسه قد شعر بالشفقة تجاه هذا المسكين فقرر أن يُريحه من كل هذا الجحيم، لا تهم الإجابة، ففي النهاية تمكن النوم من معاذ وهو يُطبق على صورة إسراء، أو ما كان يظن أنها كذلك حسب حديث والده، والذي كشف فيه عن أن الصورة تتعلق بوالدته، وتحديدًا في مرحلة شبابها ونُضجها، ما كل هذه الفوضى يا تُرى؟

***

تسلل معاذ مع الفجر دون أن يُخبر والده بالرحيل، لا يعرف لماذا كان يخشى مواجهته مجددًا، يشعر أنه يمتلك من الحقائق ما قد يقلب حيرته إلى جحيم حقيقي، لا يُريد ذلك الآن، ولا طاقة له به من الأساس، يكفي ما به من حيرة، وعلى كلٍ، هو في طريقه الآن إلى قبر إسراء، وبالتأكيد لن يفوت فرصة التقاط صورة للاسم المنقوش عليه كي يُريها لأبيه ويُثبت على الأقل أن الوهم لم يتمكن منه كل هذا القدر الذي يظنه والده.

هذه المرة أقسم أنه لن يأخذ سيارة أجرة، يخشى أن يعثر على زين مرة أخرى

ويُطير له ما بقي من عقل في رأسه، فضل القطار، والحقيقة أن القطار كذلك لم يعد آمنًا، ففيه احتمالية كبيرة للعثور على مذكرات شخص آخر وبدء جحيم آخر، لكنه استقله في النهاية، وعلى ذكر مرور المذكرات في رأسه قرر مُترددًا أن يفتح المذكرات الموجودة في حقيبته الآن، والتي تحولت دون سببٍ مُقنع من مذكرات إسراء إلى مذكرات والدته.

حياة والدته بالتأكيد ستختلف كثيرًا عن حياة إسراء، كان يتوقع أن يجد فيها بعض الأمور المُتعلقة بالزراعة ورعي الأغنام والحياكة، أشياء نسائية قديمة كانت تحدث في التسعينات، شباب والدته زينب الذي قضى عليه بنفسه، أو هكذا كان يُحاول والده إخباره خلال حديثهما السابق، أو إن شئت قل العاصفة السابقة.

كان معاذ يتوقع كذلك أن يجد أسلوب كتابي بسيط يكاد يقترب من السيء، أصلًا لم يكن يتخيل أن والدته تُجيد القراءة والكتابة مثل إسراء، وعلى الرغم من أنه لم يكن قد رأى من قبل إسراء أو والدته إلا إن قلبه كان ينتصر أكثر لتلك الفتاة، كان يجعل لها الأسبقية في كل مقارنة يخوضها معه.

في النهاية، وبعد كثيرٍ من الصراعات الداخلية، فتح معاذ أخيرًا الصفحة الأولى من المذكرات ثم بدأ في القراءة وهو يأخذ وضعية المُتأهب لاكتشاف سرًا جديدًا من أسرار هذا العالم الكبير، هذه هي العادة مع كل مرة يُحاول القراءة فيها، لكن الأمر الآن يتعلق بوالدته، ذلك الشخص الذي لم يره من قبل ويُتهم بقتله، كما أنه، حسبما يرى الجميع، السبب في مكوثه بحالة الوهم، أو الجنون بالمعنى الأدق.

***

١٥ سبتمبر ١٩٩٤

يبدو أن الطفل في بطني لا يكف أبدًا عن التقلب، بقيت شهور قليلة لأقابله، والحقيقة أن شعوري ما زال كما هو منذ المرة الأولى التي عرفت فيها أن ثمة

ضيف جديد سوف يحل على بيتنا ويُشاركني فيه رفقة عز الدين، ذلك الذي كاد يرقص فرحًا فور علمه بالأمر، أما أنا، فلا أزال خائفة، تتملكني الرهبة الشديدة من كل شيء يتعلق بهذا القادم من بعيد، الحمل والولادة والتربية، كل هذه أشياء تبعث على الخوف والقلق، وبالتأكيد لا يُمكنني أن أُنكر فرحتي بوصول ولي العهد، لكن القلق قد تمكن بسهولة من هزيمة تلك الفرحة، صدقًا لا أشعر أبدًا أن الأمور ستمر بخير.

يقول عز الدين أنه يُريد تسمية طفلنا، إن كان ذكرًا، عمر، يعشق هذا الاسم كعشقه لصاحبه الفاروق عمر بن الخطاب، أمير المؤمنين وخليفتهم، حيث يرى أنه أقوى رجل صادف أن قرأ عنه أو سمع به، الأقوى في كل شيء تحديدًا، وعلى سبيل التبرك يُريد أن يحظى طفلنا بذات الاسم، ويعتقد أن ذلك سوف يُمهد له للحصول على ذات القوة وذات العدل، وبالرغم من اقتناعه الشديد بالأمر إلا أنني عندما أخبرته برغبتي بتسمية مولودنا القادم مُعاذ، كما نويت منذ زمن بعيد، وافق على الفور، المسكين لا يُريد إغضابي بأي شكلٍ من الأشكال، يُحبني، وأحبه، وأعرفُ أنه غير نادم أبدًا على زواجنا الغريب.

كان عز الدين فتًى جامعيًا في العشرين من عمره عندما وقع في حب فتاةٍ غيرى، كان حديث القرية والمُتعلم الوحيد بها، وكانت كل إناثها ترغب بالزواج منه، تتمنى حتى مجرد نظرة عابرة، نظرة اهتمام كانت أو امتعاض، المهم أن ينظر لهن الفتى الجامعي الوحيد في القرية، ولا أُنكر أبدًا أنني كنت واحدة من الواقفات في الصف الطويل للراغبات بالشاب عز الدين، كُنت فتاة في السادسة عشر، وأزعم أنني كنت جميلة إلى حدٍ كبير، لكنني لم أكن أبدًا بجمال حور التي أحبها أكثر من أي شيء آخر كما كان يعرف الجميع.

جاءت حور القرية واختفت، لا أحد يعرف كيف ولماذا، لكن هذا ما حدث، استيقظنا ذات صباح فوجدناها هي ووالدتها ضمن سكان قريتنا، ثم استيقظنا في صباحٍ آخر ولم نجد لها أي أثر، لكن ما بين اليومين كان كفيلًا بزلزلة حياة شبان كثيرة، من بينهم عز الدين، الفتى الأكثر تأنقًا في القرية، لكن حور في

الحقيقة لم تنظر إليه ولم تعره أي اهتمام، لم تنظر إلى أي شخص في القرية عمومًا، كانت طيف ساحر تمكن من الاستيلاء على الألباب ثم فر بها، بل إن هناك من قال إنها نفرٌ من الجن، وهناك من قال إنها حورية هبطت من الجنة، الجميع تحدث عنها بلا استثناء.

عندما أُفكر في الأمر أجدني أقول إن عز الدين قد تزوج مني لأنني أُشبه حور هذه كثيرًا، فأنا أيضًا لستُ من أهل دلجمون الأصليين، صحيحٌ أنني قد عشت بها أكثر من ثلثي عمري، لكنني وُلدت في شرنوب، وطبعًا لا أعرف شرنوب هذه ولم أزرها من قبل، لكن أهلي منها، وإن صح ما كُنت أسمعه خِلسة فإن أبي قد جاء إلى دلجمون هربًا من الثأر، كانوا ينوون قتله لشيء ليس له أي يدٍ فيه، ولو كُنت تُفكر في يومٍ أن تموت فلن تُفكر بالطبع في جعل موتك بهذه البساطة ولأمر لا دخل لك به، وأبي كان يملك من العقل ما يجعله مؤهلًا لفعل ذلك، آخرون غيره كانوا سيتشدقون بأمور ساذجة مثل الشجاعة وشرف العائلة، أي شجاعة وأي شرفٍ في الموت يا تُرى؟

لا وقت للتفكير فيما مضى، لقد حدث ما حدث، ترك أبي شرنوب وجاء إلى دلجمون لألتقي بعز الدين ونتزوج، هذا ما حاكه القدر لكلانا، ولو كان ثمة شيء يُضحكني حقًا فلن يكون أي شيء بخلاف اليوم الذي جاء يتقدم إلى والدي ليخطبني فيه، كان غارقًا في نقطة ماء، كان خجولًا، الجميع كان يعرف ذلك، لكن الخجل لا يعني أبدًا أن يرتبك عند نطق اسمه ويرتعش عند شرب الماء، كان مُمتلأً بالخجل، والحقيقة أنني قد أحببت ذلك، وأحببته أكثر لما قضى حياته كله بعد الزواج غير قادرٍ على رفع عينه على امرأة غيري.

أحيانًا أسأل نفسي عن العلاقة بين الحب والموت، أقول، هل سيتزوج عز الدين غيري بعد أن أموت؟ هل سيفعل مع كل هذا الحب الذي يكنه لي؟ ومن ناحيةٍ أخرى، هل من الممكن أن يموت حبه لي مع الوقت؟ هل يموت الحب أصلًا؟ هل ندفنه مع دفن الذين نحبهم؟ الكثير من الأسئلة كانت تعصف بذهني في هذا الوقت، وكأن الحمل قد جاء بجنين في البطن وعقل في الرأس لا يكف عن

التساؤل، عمومًا سأنتظر، لا أملك شيئًا سوى الوقت، تسعة أشهر كاملة، مر ثلثاهم وآمل أن يمر ما تبقى بخير، من أجلي، من أجل عز الدين، من أجل ذلك الجنين الذي ننتظره بشغف.

***

الأمل... إياك أن تمنحه لشخص ثم تسلبه منه.

(٧)

أنهى القراءة مع نهاية الرحلة، هذه عادته في كل مرة يفتح فيها المذكرات، لا يشعر بنفسه إلا وهو يتأهب للنزول من عربة القطار، وكأن هذه المذكرات قادرة على سرقة الزمن منه، تمامًا كما تمتلك القدرة على سرقة حياته وعقله، والواقع أن مذكرات أمه لم تختلف كثيرًا عن مذكرات إسراء، كلتاهما آسرتان مُمتعتان، يحوطهما المشاعر والدفء، كما لفت نظره أن طريقة الكتابة واحدة في كلا المخطوطين، وعلى ما يبدو من تردده أنه قد بدأ لا يستبعد أبدًا رواية عز الدين الغريبة، لكن بالتأكيد هذا ليس الوقت المناسب للجزم بأي شيء.

في الطريق إلى القبر أراد مُعاذ أن يحصل على دليلٍ آخر من شرنوب كي يُريه لوالده، لا دليل بالتأكيد أكبر من بدر شقيق إسراء، قرر أن يصحبه معه إلى القبر ثم إلى منزله في دلجمون كي يقص القصة بنفسه على مسامع عز الدين، سيجمع كل الإثباتات على صدقه، سيحاول أن يُثبت ذلك لنفسه أولًا، فقد استطاع والده زلزلته بحديثه، ومن قبله ذلك السائق غريب الأطوار زين، كل شيء منذ صباح الأمس لم يكن طبيعيًا بالمرة.

أخذته قدمه مُسرعة إلى بيت الدكتور حسن مُنير، لا يُمكن أبدًا أن ينسى مكانًا كهذا، مكانٌ كان من المفترض أن يعيش به أجمل قصة حب ويلتقي بأجمل فتاة ويقرأ الفاتحة مع والدها على مسمعٍ منها، لكن كل هذا لم يحدث، وبكل أسف لن يحدث، ما يهمه الآن أن يُثبتٍ عدم جنونه أمام والده، وقف أمام البيت وطرق الباب، أجابه صوتٌ من الداخل:

-«من الطارق؟»

تنحنح معاذ كي يُزيل حشرجة صوته المُتراكمة، صاح:

-«أنا معاذ».

فتح بدر الباب، والحقيقة أن أي شخص لو كان واقفًا في هذه اللحظة لكان

سيلحظ بسهولة قلق معاذ وترقبه من ردة فعل بدر غير المتوقعة، لكن، على عكس ما توقع معاذ تمامًا، ارتمى بدر في أحضان معاذ وأخذ يُربت على ظهره، قال بلهفة وحب بارزين من عينيه:

-«ما كل هذا الغياب يا رجل، مرت خمس سنوات كاملة، أخيرًا تذكرتني!»

تبدلت مشاعر مُعاذ تمامًا، بدأ يكتسب ثقته بنفسه شيئًا فشيئًا، ولم يدع استقبال بدر له مجالًا للشك في صدق ما يعيشه، إذًا، ليس هناك ما يُدعى بالوهم كما يدعي زين ووالده، قبل أن يستفيق معاذ من أفكاره جره بدر من يده إلى الداخل وأجلسه على أريكة تتوسط البيت ثم هرول باتجاه المطبخ قائلًا:

-«انتظرني لدقائق، سأُحضر مشروبًا وماء بارد، لا بد أنك عانيت من ويلات الشمس والحر!»

بدأ معاذ في تفحص حيطان الشقة، كان يبحث عن الصور التي رآها من قبل، لكنها لم تكن موجودة، ظن أنها قد نُقلت من أماكنها أو أن بدر قد أزالها لأنها تُذكره بما حدث لعائلته من كرب، استبعد تمامًا أن تكون جزءً من الوهم الذي وجد نفسه مُنغمسًا فيه طوال الفترة الماضية، قال لبدر وهو يضع أمامه الماء وزجاجة المياه الغازية:

-«أما زلت على حالتك الأولى يا بدر؟»

وضع بدر الماء وجلس على الأريكة المُقابلة لمعاذ، قال بحسٍ فلسفي:

-«ومن في هذا الحياة يبقى على حالته الأولى يا مُعاذ، تخرجت ودخلت الجيش وبدأت العمل قبل شهور».

مازحه معاذ:

-«الحمد لله أني وحيد والدي، على الأقل اختزلت فترة الجيش المريرة».

-«كل شيء يمر، سواء رغبنا في ذلك أم لم نرغب».

لاحظ مُعاذ أن فلسفة بدر في حديثه ليست فلسفة عابرة، وإنما مُتأصلة أصيلة، وكأن شيئًا ما قد ألم به وجعله يتحول إلى هذه الحالة، لم يشأ أن يُقحم نفسه في الأمر، فقد كان يُريد فعل الأمر الذي جاء من أجله ودحر كل ما يُقال عن الوهم وما يعيش به، اعتدل في جلسته ثم قال:

-«كيلا أُطيل عليك، جئتك طالبًا المُساعدة في أمرٍ هام جدًا، حياة أو موت تحديدًا».

بادله بدر نفس الاعتدال في الجلسة ثم أعاره اهتمامه قائلًا:

-«وأنا خادمك، إن كنت أستطيع تقديم المساعدة».

-«تستطيع إن شاء الله، الموضوع وما فيه أن والدي لا يعترف بوجود شقيقتك وأن ...»

قاطعه بدر، وكأن الأمر لا يحتمل أبدًا التغاضي عنه:

-«معذرةً، ولكنك بالتأكيد تقصد قول عمتي!»

عجز معاذ عن الرد لثوانٍ طالت، بدأت الحقائق تتقلب في رأسه من جديد، وبدا جليًا أن ما يملكه بدر في جعبته لا يختلف كثيرًا عما يملكه عز الدين وما قاله زين في البداية، لكن الفتى المسكين حاول أن يتماسك وأن يطرد كل الأفكار السيئة من رأسه، قال بحذر شديد:

-«وما علاقتي بعمتك؟ أنا أتحدث عن شقيقتك إسراء!»

لم يُمهد بدر كثيرًا لصدمة معاذ، وإنما أفرغ كل ما يملك دفعة واحدة:

-«وما علاقتي بإسراء؟ من تكون أصلًا؟ وكيف تكون شقيقتي وأنا لا أمتلك إخوة! ما يربط بيننا هي عمتي».

لا وقت بالطبع لوصف حالة الاندهاش التي بدا عليها معاذ، لكنها كانت حالة اندهاشٍ صارخة، سأل بقلق:

-«ولماذا قد تربط بيننا عمتك!»

حملق بدر في معاذ قليلًا وكأنه يحاول فك شيفرته واستيعابه، أظهر تعجبه قائلًا:

-«أنت غريب يا معاذ، هي شقيقة أبي، وفي نفس الوقت والدتك!»

بادله معاذ نفس الشعور مرةً أخرى، قال مُتشككًا:

-«ما الذي تقوله يا بدر؟ أتمزح معي؟»

كرر بدرٍ السؤال بصيغةٍ أكثر حِدة:

-«أتمزح أنت معي؟»

حاول معاذ إظهار أكبر قدرٍ يتمتع به من الجدية، قال:

-«لا، أنا لا أمزح، ولا أجد في هذا الموضوع أي صوت للمزاح».

-«ولا أنا، لكنك تدعي أمور لا وجود لها ولم أسمع عنها من قبل، أي شقيقة وأي إسراء يا ابن العمة!»

فكر معاذ في أن النقاش إذا استمر فسوف يتطور الأمر إلى الأسوأ، لذلك خطرت في رأسه فكرة الإلقاء بالكارت الأخير في هذا الصراع المُحتدم، قام من مكانه ثم وجه ليوسف سؤالًا لا يحتمل الكثير من الإجابات:

-«هل تأتي معي الآن إلى المكان الذي سيثبت لك صدقي؟»

نظر بدر مستطلعًا وجهة معاذ، سأله:

-«إلى أين؟»

بثقةٍ شديدة أجاب معاذ:

-«إلى مقابر آل مُنير».

***

من يحفظ طريق المقابر أكثر؟ معاذ الضيف أم بدر أحد سكان المنطقة؟ في الحقيقة كان معاذ هو الأكثر دراية بتضاريس المكان، كان يسير إلى المقابر بخطى ثابتة على الرغم من أن كل شيء حوله كان يقود لخلاف ذلك، ثقته بدأت تعود بمعرفته لطريق المقابر جيدًا، قال في نفسه أن شيء ما على الأقل ليس وهمًا، كان يُفكر في أمر واحد، ما الذي سيفعله بدر عندما يرى اسم إسراء حسن منير على باب القبر؟

الكثير من الأمور وضعها معاذ في مخيلته وبنى عليها جسرًا طويلًا من الأحلام، كان يثق في القدر أكثر من أي مرة مضت، والحقيقة أنه في عتمة هذا الصراع لاح في الأفق أمرٌ هام، معاذ لا يسعى لإثبات وجود إسراء في حياته، بل يسعى لإثبات صدق كل ما عاشه من قبل، يُريد أن يعترف الجميع أنه لم يكن يتوهم في كل ما مضى، وهذا في الحقيقة أمر مُقلق، بشأن الحب وما أضاعه فيه من أوقات ودقات متضاربة كادت تُفنيه في مرة من المرات.

وصلا إلى باب المقابر، الأموات كما هم منذ تركهم، لا جديد يحدث في هذه البقعة من الأرض، حتى أولئك الذين ينضمون إليهم حديثًا في كل ليلةٍ لا يأخذون وقتًا طويلًا حتى يُظهرون تأقلمًا سريعًا مع الوضع، الجميع يفني عمره استعدادًا لهذه اللحظة، فأين الغربة والوحشة التي يدّعونها يا ترى؟

-«ها هو قبر إسراء الذي حدثتك عنه».

قال معاذ وهو يُشير بيده إلى أحد القبور أمام أعين بدر، بدا غير قادرًا على الانتظار تلك الخطوات القليلة المُتبقية، بدا مُتعجلًا، أما بدر فقد بدأت أعراض

الدهشة تظهر عليه مُجددًا، حتى تحذيرات مُعاذ له بعدم التعرض بالقدم لأي قبرٍ من القبور لم تكن تلقى الاستجابة الكاملة، عمومًا، في نهاية السير توقف معاذ عند أحد القبور ثم وضع يده على ظهره وأخذ يُربت عليه، قال بثقةٍ وكأن الأمر قد حُسم:

-«وهذا يا سيدي القبر الذي كُنت أحدثك عنه، قبر إسراء حسن منير، شقيقتك، الفتاة التي لازمت قبرها طوال السنوات الخمس الماضية، الآن، ألا تعترف أن هذا القبر ينتمي إليك؟»

في صدمةٍ تامة قال بدر وهو ينظر إلى الاسم المنقوش على القبر:

-«بل أعترف، إنه حقًا ينتمي إليّ».

تلألأ وجه معاذ وأشرق، هذه أول معركةٍ ينتصر بها، توجه ناحية بدر وأمسك بيده يجره وهو يقول:

-«والآن دعنا نذهب إلى أبي لنخبره بكل شيء، سيصدقك بكل تأكيد».

جر معاذ يد بدر فلم يتحرك، كان مُتثبتًا في مكانه يُبدل النظرات بين وجه معاذ وردة فعله وذلك الاسم المنقوش على القبر، بصعوبة قال بدر وهو ينظر إلى معاذ نظرة مشفقة:

-«معاذ هلا دققت النظر في الاسم رجاءً!»

استدار معاذ ونظر إلى الاسم فارتسمت عليه علامات الفاجعة للدرجة التي لم تتمكن معها قدمه من حمله على الأرض، لقد كان الاسم المكتوب هو «زينب حسن منير»، أما تاريخ الوفاة فقد كان عام ١٩٩٥!

***

عليك أن تعرف أن الحياة ليست بهذا السوء الذي تبدو عليه، بل أسوأ!

(٨)

كل شيء مُظلم، ثمة نور، لكنه نورٌ مُنطفئ، هل يُفيد النور الشخص الضرير في شيء؟ مُعاذ الآن مجرد شخص ضرير، لو لاحظته أثناء السير فستجد أن مشيه أقرب ما يكون إلى التعثر، لو دققت ستجد أنه يُفضل الاقتراب قدر الإمكان من الحائط، يُريد بجواره كل شيء يُمكن الاستناد إليه، وفي ليلة كهذه قبل سنواتٍ قليلة كان من الممكن أن يلجأ إلى الفيلسوف، صديقه الوحيد وأكبر خدعة تلقاها في حياته بنفس الوقت، لكن، أين يوسف الآن؟

فكر معاذ في الذهاب إلى الشِقة التي كان يسكن بها مع يوسف، إنه بالتأكيد مكانٌ غير قابل للنسيان، فقد حدثت به الكثير من المعجزات، وحتى لو كان الوهم قد تلبس معاذ فعلًا فإن ثمة صديق يُدعى يوسف كان يعيش معه، فقط ما لم يُحدِث هو بعض الأمور الأخرى التي يتخيل أنها قد حدثت مع ذلك الشخص، بالتأكيد كان مجرد صديق، وربما كان يعرف بأمر وهم إسراء ويُجاريه كيلا يُشعره بالحرج، والآن ليس بيده شيء سوى الذهاب إلى ذلك الصديق ومعرفة بعض التفاصيل منه، ولأول مرة شعر معاذ أنه لا يعرف الكثير عن نفسه، لا يعرف أي شيء من الأساس.

وصل إلى باب الشقة بعد ساعاتٍ من الركوب والمشي على الأقدام، كل الطريق من شرنوب إلى القاهرة قضاه في التفكير بأمر الفتاة، أجل، لقد أصبحت بالنسبة له مجرد فتاة، حتى اسمها لم يعد يحمله في رأسه، تمامًا مثلما يصفون الشخص الميت بالجثة، لا يتعرضون لاسمه ولو كان رئيس الجمهورية الأسبق، الآن إسراء هذه باتت غير موجودة حسبما يقول كل شيء حوله، وعلى سبيل التفضل سوف يُطلق عليه اسم الفتاة، وربما لو كان أكثر دقةً وإنصافًا لوصفها بالشيء، الشيء الذي لا يعرف حتى الآن ما هو!

توقف معاذ قليلًا عند قصة تلك الفتاة واحتمالية كونها مجرد وهم، لو كان ما يدعون صحيحًا، ولو كانت الفتاة محض وهم مُصطنع، فإن معاذ بلا شك بات يعرف وجهته القادمة، إنها تأليف القصص والروايات، فقد كانت بحق قصة

مؤثرة، تأثر بها كل من أسمعها له، لكن لحظة واحدة، أليس هذا التأثر أيضًا وهم؟ ألا يُمكن لمعاذ أن يكون أكثر إنصافًا مع نفسه ويعترف بأنه قد صنع عالمًا وعاش به، عالم غير موجود من الأساس!

دخل الشقة، ولم يتردد قبل ذلك لحظةً واحدة في إخراج المفتاح من جيبه ووضعه في موضعه بالباب، حتى الدهشة لم تعتريه أبدًا ولم تدفعه في التفكير بالطريقة التي ظل بها ذلك المفتاح في جيبه حتى الآن، أيكون وهمًا؟ بالتأكيد لا، لا يُمكن أن يكون موهومًا في اللحظة التي يتحقق فيها من وهمٍ سابق، إنها لحظة الحقيقة، ووجود المفتاح في جيبه حقيقة من تلك الحقائق التي ربما يكون ثمة سبب منطقي لها غير موجود في عالمه الخيالي الذي صنعه لنفسه.

كل شيء كان كما هو منذ تركه معاذ قبل سنوات، عدا بعض الصواعق البسيطة التي لم تعد تُدهش الفتى بالقدر الذي كانت تفعله من قبل، مثلًا، كان ثمة سرير واحدٍ، ومكتبٍ واحد، وكُتب قديمة لشخص واحد، ولكيلا ترهقوا أنفسكم، هذا يعني أنه كان ثمة شخص واحد فقط يعيش في هذه الشقة، واسمه معاذ، إذًا، الأمل الأخير له قد قُطع، لا وجود ليوسف أو فلسفته، كانت هذه شخصية وهمية أخرى، وهي بالمناسبة شخصية تستحق التقدير وجائزة خاصة لمن ابتكرها، لأنها كانت ولا تزال أغرب شخصية يُمكن أن تُقابلها في حياتك على الإطلاق.

هل يستسلم الفتى؟

المنطق يقول ببساطة إن كل شيء قد انتهى، وأن الوهم الذي يُعاني منه معاذ لم يعد شيئًا يحتمل التشكيك به، لكن متى كانت آخر مرة كان المنطق فيها مُقنعًا؟ بالتأكيد لا تذكرون، ولا معاذ كذلك يذكر، لذلك فهو يمتلك في جعبته محاولة أخيرة تتعلق للغرابة بالشيء الذي ثبت عدم وجوده الآن، إنه يوسف الفيلسوف، أغرب شخصية، صادفها معاذ في عالمه الوهمي، على الإطلاق، أو العالم الذي يدعي الناس أنه وهمي، لأن معاذ لا زال يملك الأمل في كونه الشخص الوحيد العاقل على ظهر ذلك الكوكب المجنون.

يوسف ميت، هذا أمر لا خلاف عليه، لكن تذكر معاذ ليوسف جعله يتذكر شيء هام يتعلق به، إنه الطبيب النفسي الذي فسر له قبل سنوات حالة الفيلسوف وما عانى منه، لقد كان شاهدًا على كل شيء، ولا بد أنه يملك التفسير المناسب لما يحدث، أو على الأقل سيُثبت أن جزءًا ليس بالقليل من الأحداث قد وقع بالفعل، سيقول أنه ثمة من يُدعى يوسف، وإذا ثبت هذا الأمر فبإمكان معاذ الانطلاق من هذه النقطة لإثبات عدم جنونه، صحيحٌ أنه لم يصفه أحد بالجنون بعد لكن كل الطرق تؤدي إلى هذه النهاية المُخزية، تخيلوا أن عاشقًا أسطوريًا مثل هذا سوف يكون بنهاية الأمر مجنونًا!

كانت حالة معاذ تتلخص في كلمة الخذلان، من خذل من؟ لا يهم، في النهاية الخذلان حاضر في الأمر، لكنه سوف يكون خذلانًا كبيرًا لو اتضح في النهاية أنه خذلان لنفسه، يُمكنه أن يتقبل أي شيء إلا أن تكون قصة الحب هذه وهمية، آهٍ لو كانت في آخر الأمر قصة وهمية، آه لو كان طريقك مسدودًا يا معاذ، سوف تُعاني يا ابن عز الدين، ستُغتال في أثمن شيء لدى الإنسان، ذلك القلب الكامن بين ضلعيك الآن في حيرة وخوف.

كان الخوف يُصارع الوهم في مخيلة المسكين معاذ، يخاف أن يقتله الوهم، ويتوهم أن الخوف قد تمكن منه، هو لا يعلم ردة فعله إن كان ما يعتقد حدوثه لم يحدث، لكنه يعرف يقينًا أن الأمور لن تسير على ما يرام، ولوهلة فكر معاذ في الجانب الإيجابي المُشرق من الأمر، ببساطة شديدة، لن تكون إسراء ضمن الأموات، بيد أنه من الناحية الأخرى ثمة كارثة بانتظاره، وهي أنها لن تكون ضمن الأحياء كذلك، هو لا يعرف الوهم جيدًا، لكنه يوقن أنه سيُسدد له ضربة قاتلة.

الأشياء المُتصارعة في ذهن معاذ الآن عليها أن تتوقف، عليها أن تتجمع وتستقر من أجل الأمل الأخير، إن كان حقًا ثمة أمل فإنه في الطبيب، لو كانت عيادته موجودة فهذا يعني أنها ليست وهمًا مُختلقًا مثل بقية الأحداث، هو يختلق الخيال، لكنه لا يُحققه، أي أنه يُمكنه أن يختلق طبيبًا نفسيًا في قصته، لكن هل

سيختلق عنوانًا واسمًا لذلك الطبيب ويُصبحان في النهاية حقيقيين؟ صدقوا أو لا تصدقوا، معاذ الآن يقف أمام عيادة الطبيب النفسي الذي يذكر أنه قد زاره من قبل، وهذا يعني ببساطة شديدة أن الزيارة قد حدثت في واقعه لا وهمه، ما لا يعرفه فقط هو الأمر الذي حدث خلال تلك الزيارة، وهذا بالضبط ما سيسعى للتحقق منه الآن.

***

لا تُصدقهم، لم يثبُت أبدًا أن غريقًا قد تعلق بِقَشةٍ ونجا.

(٩)

توقف معاذ أمام عيادة الطبيب للحظات، سأل نفسه إن كان يود الدخول حقًا وخوض تلك التجربة أم أن عليه التراجع والتعايش مع حقيقته، هذه هي الحياة، نعيشها دائمًا بعيدين عن الكهرباء خوفًا من الموت، وفي لحظة من اللحظات يكون التعرض لشحنات كبيرة من الكهرباء هو الأمل الوحيد لنجاتنا، معاذ الآن يخاف من الكهرباء، لكنه في نفس الوقت مُطالبٌ بالتعرض لها، اختيارٌ صعب، لكن متى كانت الحياة أصلًا سهلة معه؟

دفع كشفًا بقيمة خمسين جنيهًا ثم انتظر لوقت طويل مع المنتظرين، كانوا أكثر من عشرين، وهنا مر طيف خاطف بذهن الفتى المنتظر، سأل نفسه، هل كان قبل سنواتٍ من الآن يتوقع أنه ثمة كل هذا العدد من المرضى النفسيين؟ هل الناس مُتعبون لهذه الدرجة، لكنه عاد يتذكر ما الذي كان عليه قبل سنوات، كان يعيش حياة هادئة مُستقرة، ثم في لحظةٍ ما حدثت العاصفة التي لم يكن ينتظرها، كل الأشياء التي حدثت له مؤخرًا لم يكن ينتظرها، ومن مثل هذه الأمور يتفجر نبع المرضى النفسيين، الآن بات يعرف لماذا كل هؤلاء هنا، ببساطة شديدة، لقد حدثت معهم أمور لم يكونوا بانتظارها، أمورٌ طيرت عقلهم إلى حد الجنون.

جاء دوره أخيرًا، دخل بخطوات مُتذبذبة، هذا الموقف لا يتطلب أبدًا الإقدام، ثم إنه لم يعتد أبدًا على الإقدام في أي موقفٍ في حياته، هل يأتي الآن ويفعل؟ بالتأكيد لا، هو كذلك لا يمتلك احتمالات سوى بما هو أسوأ وأسوأ، عليه فقط أن يخوض في الأمر، لكن، هل من يُريد الخوض في الأمور مباشرة يجلس بهذه الطريقة؟

دخل معاذ وجلس على مقعده أمام الطبيب دون أن ينبث ببنت شفاه، جلس صامتًا، حتى أنه لم ينظر للطبيب، لم يُلق التحية، لم يفعل أي شيء يدل على أنه

شخص طبيعي، الطبيب تكفل بإنهاء حالة التخبط هذه وابتدر الحديث، قال:

-«مرحبًا معاذ، كيف حالك؟»

ردت الحياة في معاذ، ما دام يذكره فهو يعرفه، وما دام يعرفه فثمة جزء كبير مما يدعيه حقيقي، ليس هناك وهم إذًا، لكن ليس عليه الاستعجال أبدًا، سيحاول أن يخرج منه بأكبر جزء ممكن من الحقيقة، لن يتسرع ويقع في الفخ، قال منتقيًا كلماته بحرص شديد:

-«مرحبًا، ألا زلت تذكرني؟»

أجاب الطبيب مبتسمًا ابتسامة الأطباء المعهودة:

-«بالتأكيد أذكرك، صحيح أنه قد مر وقت طويل على زيارتك الأخيرة لكن أمثالك لا يُنسون يا معاذ».

أثارت كلمة «أمثالك» بعض التساؤلات في ذهن الفتى المسكين، ما الذي يعنيه بهذه الكلمة؟ وما هو الشيء المميز به؟ لكنه احتفاظًا لعهده مع نفسه لن يقع في الفخ، سيُجاريه وكأنه في زيارة طبيعية، قال مُحافظًا على اتزانه:

-«جئتك أطلب منك المساعدة في أمرٍ هام، لكنني أولًا أود سؤالك عن شيء ما يشغلني».

مرة أخرى ابتسم الطبيب، قال:

-«أنا في خدمتك بالطبع».

اعتدل معاذ قليلًا في جِلسته، قال بصيغة المُستكشف:

-«ما هو الوهم من وجهة نظرك؟»

تنهد الطبيب، غريب جدًا أن يُسأل طبيب نفسي مرموق سؤال مثل هذا، كان

على ما يبدو متوقعًا شيء أعظم من معاذ، لكن سؤاله بدا مُتكدسًا بالسذاجة، رُغم ذلك أجاب الطبيب:

-«الوهم أن نتخيل وجود أشياء لا وجود لها في الحقيقة».

رفع معاذ من قيمة السؤال، أخذ من إجابة الطبيب وسأل مرةً ثانية:

-«وما هي الحقيقة؟»

جاراه الطبيب وأجاب:

-«الحقيقة هي الأشياء التي يتفق الناس على حدوثها».

-«وماذا لو كان الناس قد اتفقوا على شيء ليس صحيحًا بالمرة!»

-«من المستحيل أن يتفق الناس على شيء ليس صحيحًا».

لاحظ الطبيب عدم استيعاب معاذ لإجابته الأخيرة، قال موضحًا:

-«ببساطة شديدة، طبيعة الناس هي الاختلاف، عندما يتفقون على شيء فهذا يعني أنه صحيح بنسبةٍ كبيرة، ثم إنه ثمة ثوابت لا نقاش بها، مثلًا عندما نقول إن الدم لونه أحمر فأي شخص يخرج ويقول إن لونه أبيض هو بالتأكيد مُخطئ، لكن لماذا تسأل عن هذه الأمور؟»

قال معاذ بلغةٍ حمقاء بعض الشيء:

-«لأنه ثمة من يُشكك في حقيقة وجودك».

بدا التعجب على الطبيب، تابع معاذ:

-«يقولون إننا لم نلتقِ من قبل، وأن كثير من الأمور الأخرى التي حدثت خلال السنوات الخمس الأخيرة لم تحدث».

قهقه الطبيب ثم ارتشف رشفة طويلة من فنجان القهوة أمامه:

-«هؤلاء هم المجانين، أنت أحد أكثر الأشخاص ترددًا عليّ في العيادة، و...»

قاطعه معاذ الذي بدا مذهولًا فجأة:

-«أتردد عليك!»

تعجب الطبيب من تعجب معاذ، أردف بذهول شديد:

-«وما الغريب في ذلك؟»

أغفل معاذ سؤال الطبيب وقابله بسؤال استفهامي آخر:

-«كم مرة زرتك هنا؟»

-«الكثير والكثير، لقد ظللت تزورني طيلة عام كامل ثم انقطعت فجأة».

اندهش معاذ أكثر، قال متعجبًا:

-«لكنني أراك للمرة الثانية!»

-«ما الذي تقوله يا معاذ؟»

شعر معاذ أن شيء ما يتملص منه، عقله مثلًا، بدا وكأنه يتطاير في الهواء أمام أجوبة الطبيب المُدهشة، قال مُتماسكًا:

-«ألم أزرك مرة واحدة من أجل صديقي يوسف؟»

-«ومن يكون يوسف هذا؟»

تعجب معاذ من سؤال الطبيب الذي بدا غير مقبولًا بالنسبة له، قال:

-«من يكون يوسف! ولماذا كنتُ أزورك إذا لم يكن هناك يوسف!»

-«أنت غريب جدًا يا مُعاذ، ألا تعرف لماذا كنت تزورني!»

لم يُحرك معاذ أي جزء منه، تأهب ليسمع سبب الزيارة الذي بدا من مُقدمة الطبيب أنه سبب كارثي، قال الطبيب:

-«لأنك مريض نفسي، تُعالج هنا مثل الآخرين!»

***

الخذلان...شيء ستعتاد عليه جدًا في هذه الحياة.

(١٠)

هل يُمكن وصف ما يمر به معاذ الآن؟ في الحقيقة لا يُمكن، ثمة الكثير من المشاعر المُتخبطة، فقط ما يجمعها أنها كلها مشاعر مُحبطة، الألم حاضر، ومعه الذهول والصدمة وعدم القدرة على الاستيعاب والشعور بالدوار دون سبب طبي، الكثير والكثير من المشاعر، لكن شعورًا واحدًا فقط بدا وكأنه المُسيطر الأكبر على مجريات الأمور، الشعور بالبكاء، ببساطة شديدة، معاذ الآن يبكي ويذرف سيلًا من الدموع الساخنة.

مشى طريقه خارجًا من عند الطبيب تاركًا واحدة من دموعه في كل خطوةٍ يخطوها، بالتأكيد كان انصرافه السريع التصرف الأمثل له في هذه الحالة، ربما لو جلس واستمع لباقي الصدمات لما تمكن من المشي مرة أخرى، على هذا الفتى تنزل الصدمات دائمًا كالصاعقة، والصواعق دائمًا لا تمر بخير، معاذ الآن ليس بخير، والوضع الآن لم يعد في حاجة إلى مماطلة أكثر، لقد بدا الأمر واضحًا وضوح الشمس، كل ما فات كان مجرد وهم، قصة اختلقها عقله الباطن ورددها حتى صدقها الفتى المسكين وعاش بها هاربًا من قصته الحقيقية، قصة أمه التي ماتت خلال ولادته، وها هو الآن يحاول التكفير عن ذنبه هذا بالحياة بجوار قبرها، لكن لماذا كان يذهب إلى طبيب نفسي؟

سأل معاذ نفسه وأجابها، كان سؤال ساذج لا يستحق أن يسأله للطبيب النفسي، بالتأكيد كان الوهم هو مرضه، يختلق الأشياء ويدعي حدوثها دون أن تحدث، يختلق الأشخاص ويدعي وجودهم دون أن يكونوا موجودين في الحقيقة، ويختلق الحياة ويدعي أنه على قيد الحياة بينما هو لم يعد الآن، جسده فقط هو الحي، لكن روحه كانت ميتة، هو من قتلها بنفسه عندما هرب من واقع تسببه بموت أمه ولجأ إلى القصص الوهمية لبناء ما بقي من حياته بنفسه، وكانت قصة حبه لإسراء واحدة من تلك القصص التي حاكها له عقله الباطن وأبدع في إقناعه بها.

أعطاه الطبيب قبل المغادرة ملفًا يصف حالته النفسية التي وصل إليها، كانت

صدمة معاذ كافية للتوقف عن المجادلة أو المماطلة في أي شيء، أخذ الملف وغادر بهدوء أمام صدمة الطبيب التي بدأت تتلاشى شيئًا فشيء، معاذ في النهاية مريض نفسي، متوقع منه هذه الأمور وأكثر، كل ما هنالك أن الطبيب في البداية اندهش من ادعاء معاذ بأنه لم يره سوى مرةً واحدة، أو هكذا كان يبدو وقتها على صاحب المعطف الأبيض والنظارة السميكة المميزة.

قرر معاذ أن يجلس في مكانٍ ما ويقرأ بعضًا مما كُتب عنه في التقرير، يُريد أن يحظى بالقليل من الصدمات التي اعتاد عليها طوال اليومين الماضيين، وكأن ذلك السائق قد ظهر خصيصًا من أجل فتح باب الجحيم عليه، كانت حياته هادئة وسط القبور، وكان يشعر أن بيوت الموتى هي المكان الذي ينتمي إليه حقًا، الآن يبدو للجميع، وله كذلك، أن ذلك الانتماء بات يخص مكان واحد فقط، مستشفى المجانين بالعباسية.

يقول التقرير في بدايته أن معاذ قد بدأ بالهلوسة وتوهم حدوث أشياء لم تحدث في عام ٢٠١٤، وقد كانت أولى زياراته في شهر نوفمبر من ذلك العام، وكان معه والده فقط خلال تلك الزيارة، وقد بدا لأول وهلة شخص طبيعي هادئ مُتزن، إلى أن تحدث، والبشر عادةً لا يُفضحون إلا عندما يتحدثون، فقد بدأ الفتى، كما يصفه التقرير، يختلق أشياء لا وجود لها ويُعاملها على أنها حقائق مُجردة، لم يكن يكذب، ولم يكن يُرد أصلًا الكذب، هو فقط مريض نفسي بدرجة متدنية جدًا، أو هكذا يُمكن وصف الحالة في هذه الزيارة.

يُتابع التقرير أن معاذ في الزيارة التالية جاء بمفرده، وقد كان يُمسك بمذكرات بطريقة تقول إن تلك المذكرات تحمل بين طياتها سرًا خطيرًا من أسرار العالم، كان مُتشبثًا بها، ولم ترق له أبدًا فكرة ترك الطبيب يطلع عليها، كان مشوشًا، لكنه كان يعرف ما يجري حوله، ولو كنا سنصف الحالة بالتفصيل فإن الفتى لم يكن يشغله سوى أمر واحد، أن يظل ما بالمذكرات سرًا بداخله، لأنه لو خرج فسوف يُغير كثيرًا من الحقائق التي يؤمن به الفتى المريض.

يُنهي التقرير بعد سردٍ طويل أنه من الصعب جدًا على أي شخص أن يكتشف

أن معاذ مريض نفسي، فقد كانت المعاناة كلها في الوهم، وإذا كنا نُريد أن نكون واضحين حقًا فإن وهم الفتى كان متُعلق فقط ببعض الحقائق دون غيرها، بمعنى أن الحياة كلها لم تكن بالنسبة له وهم كبير، بل كان واعيًا جدًا للكثير من الأمور بها، هو فقط يختلق بعض العوالم بداخله ولا يجعلها تتعارض مع العالم الحقيقي، يصف التقرير أخيرًا حالة معاذ بأنها حالة نادرة جدًا، فحتى المرض النفسي لم يتمكن من فرض سيطرته كاملة عليه.

أغلق معاذ التقرير بأسى، الآن تتضح الأمور أكثر، لم يتبق أي سببٍ للمجادلة، هو مريض، اختلق قصة حبٍ مجنونة مع فتاة اختلق اسمها وأوصافها، حتى الشروط التي وضعتها الفتاةً كانت من اختلاقه، عليه الآن أن يُلملم ما تبقى منه ويعود ليرتمي في أحضان والده طالبًا الصفح عن كل هذا التقصير في حقه، عليه أن يعده بالالتزام والعودة للحياة الطبيعية مجددًا، عليه أن يتغير للمرة الثانية خلال السنوات الخمس الأخيرة.

***

عندما وقف معاذ يُشير بيده المُتذبذبة ليوقف تاكسي يأخذه إلى البيت وجد أمامه تاكسي مألوف يقوده الرجل الذي زلزل حياته في ليلة واحدة يتيمة، لقد كان زين، وكردة فعلٍ غريبة، فتح معاذ الباب الخلفي ودخل كما فعل في المرة السابقة!

بدا القدر مُندهشًا من ردة فعل الرجلين اللذين كانا يجلسان في تلك السيارة الصغيرة، زين على غير العادة بدا مُنتبهًا جدًا للقيادة ولم يُعطِ أي اهتمام لراكبه الباكي في هذا الوقت، هذا بغض النظر عن كون ذلك الراكب هو معاذ الذي قضى معه ثلث يوم في الطريق وتسامرا في أدق تفاصيل الحياة، أما معاذ، فيُمكننا أن نمنحه العذر في تحديقه المبالغ فيه بالفراغ من نافذة السيارة، كان لا يزال مصدومًا مما سمعه لدى الطبيب، لكن كل هذا لا يمنع من أحقية القدر في الاندهاش من تلك اللحظة الصامتة، أهذه حقًا الحياة؟

من كان يتوقع أن يكون اللقاء الثاني بين هذين الشخصين بالذات سوف يكون باردًا إلى هذا الحد؟ لا تعجب منهما ولا حتى محاولة لتذكر وجهيهما، لقد بديا في المرة الأخيرة وكأنهما سيحتضنان بعضهما في لقاءهما التالي من فرط التقرب الذي حدث باللقاء الأول، لكن الآن ليس هناك أي ردة فعل تُذكر، ببساطة، تمكنت الحياة من ممارسة عادتها المفضلة في تسخيف الأمور، تقابلنا اليوم وسننسى بعضنا غدًا، هذه هي القاعدة التي يجب أن تعرفها.

ليس هناك ثوابت، وآخر شيء يُمكن أن تتشدق به هو كلمة العلاقات، لا علاقات تدوم على هذه الأرض، وكل ما هنالك هو سلسلة متتابعة من الصدف الحمقاء، وصدقوا أو لا تصدقوا، لم ينطق معاذ ولا زين بأي كلمة، ولا حتى الوجهة التي يُريد أحدهما الذهاب إليها ويُريد الآخر معرفتها كجزء من عمله البديهي!

لمزيدٍ من الجنون، أخرج معاذ المُذكرات وأدخل ملف حالته الطبية، فتح صفحة من الصفحات ثم قرر أن يقرأ كمحاولةٍ منه للولوج إلى عالم آخر مُغاير لذلك الذي أبرحه الآن العديد من الصدمات، كان زين لا يزال كماً هو واضعًا تركيزه في الطريق الذي بدا وكأنه يعرف وجهته، بينما بدأ معاذ القراءة كعادته، بنهم.

***

شتاء ١٩٩٤

مر الوقت سريعًا، بقيت أيام قليلة على الولادة، أظنه ولد، يقولون إن في القاهرة ثمة أجهزة يُمكنها تحديد نوع الجنين، لكن أين نحن من القاهرة؟ هذه دلجمون، يُرسلون لنا كل أسبوعٍ طبيبًا في مستشفى القرية المُعدمة، بالكاد نعرف منه بحملنا وكيفية قضاء مدة الحمل هذه، ثم لا نراه بعدها سوى بمرور أسبوع آخر، ربما يتغيب مرة أو مرتين، وخلال هذه الفترة ربما تموت امرأة بمضاعفاتٍ في الحمل، ويُسمون هذا التقدم!

يعتقد رجالنا أن انكشاف نسائهم على طبيب من الذكور أمر في مُنتهى التمدين

والرقي، هم في الأساس يظنون أن تحدث المرأة مع طبيب حول الحمل أحد التقاليع الجديدة، فقد اعتادوا على رؤية الداية، تلك التي شهدت ولادتهم وولادة آبائهم، لكن الزمن يتغير، وكل شيء عمومًا يتغير، أين نحن الآن من عشر سنوات الماضية، لم تكن هناك مشفى يأتينا فيها الطبيب، ولم نكن نرى الطبيب سوى في التلفاز، أصلًا لم يكن في القرية سوى تلفاز واحد، وكان ممتلكه هو أثرى شخص في دلجمون، لكن الزمن يتغير، وكل شيء يتغير.

كل هذه الفرحة في أعين عز الدين تُقلقني، الفرحة تعني الأمل، والأمل يعني الانتظار، والانتظار قد يعقبه الخذلان، وإن أسوأ شيء يُمكن أن تفعله في حياتك أن تمنح الأمل للآخرين ثم تسلبه منهم، وأنا قد منحتك إياه يا عز الدين، الآن أنت تنتظر الرضيع الذي سيُغير حياتنا، ستُحفظه القرآن كما وعدت، وستدخله الأزهر مثلما تمنيت، سيُصبح عز الدين آخر، تتمنى بنات دلجمون مجرد نظرة منه، لكن، هل سيحدث كل ذلك حقًا؟

لا أُصدق، ولم أتخيل في يومٍ من الأيام أني سأصير أمًا، لم يأخذني عقلي إلى أنني ذات يومٍ سأحمل طفلًا وأُدلل وأهدهد، حتى بطني التي تكبر أمامي الآن لم تستطع إقناعي بذلك، لكني سأنتظر، ليس لدي أصلًا سوى الانتظار، آمل أن كل شيء سيمر بخير، وآمل أنني سوف أفتح عيني في يومٍ من الأيام وأجد طفلًا صغيرًا يرقد بجواري وهو ينام بصورةٍ ملائكية، آهٍ لو أطير بالوقت، آهٍ لو أُفرغ ما في بطني بأسرع وقت، آهٍ لو يكون ذكرًا كما توقعت!

***

النهاية هي الحقيقة الوحيدة الثابتة، كل شيء سينتهي.

(١١)

أنهى معاذ القراءة وأغلق المذكرات، في هذه اللحظة تذكر أخيرًا أن يُعر الطريق اهتمامًا، وعندما نظر في جوانب الطريق من النافذة لاحظ أنه طريقًا مألوفًا لديه، إنه طريق دلجمون، ولا يُمكن أبدًا أن تخذله عينه في طريق قضاه جيئةً وذهابًا طوال السنوات الماضية، تذكر معاذ كذلك أن يندهش، سأل السائق باندهاش:

-«كيف تعرف أنني أُريد الذهاب إلى هذا المكان؟»

أجاب زين بلا مبالاةٍ تُذكر:

-«لقد أخبرتني وأنت تقرأ ما بيدك».

لم يأخذ معاذ وقتًا طويلًا حتى يبدأ في الاقتناع، لكنه أخذ وقتًا أطول في ربط نغمة صوت السائق بنغمة تتردد الآن في رأسه، نغمة شخص يعرفه، سأل معاذ مُتأكدًا:

-«أنا أعرفك، أليس كذلك؟»

بنفس طريقة الإجابة السابقة تابع زين:

-«أجل، لقد كنت راكبي لوقت طويل قبل يومين».

اندهش معاذ وأفرط في الاندهاش، سأل:

-«لماذا إذًا لم تُخبرني بذلك؟»

-«لقد كنت تبكي، وآخر شيء أرغب في فعله بحياتي أن أتحدث مع شخص يبكي».

ابتسم معاذ ثم طوح المذكرات من النافذة بيده وزفر زفرة ارتياح، لم يُعقب زين على فعلته، قال معاذ بثقة:

-«تعرف، بالرغم من كونك تبدو مجنونًا إلا أنك كنت مُفيدًا لي، لقد جعلتني أكتشف وهمًا كبيرًا عشتُ به طوال السنوات الماضية، لقد كشفت عني الوهم!»

قال زين مُعقبًا:

-«لقد كنت تعرف».

سأل الفتى باندهاش:

-«ماذا؟»

فصلّ زين رده:

-«لقد كنت تعرف أنك تعيش في الوهم، أنت فقط كنت بحاجة إلى شخص ليُنبهك أنك تغوص به».

-«وكيف فعلت أنت ذلك؟»

سأل معاذ فأجاب زين بطريقته الفلسفية:

-«ببساطة لأن الجميع من حولك كانوا جزءًا من هذا الوهم، أعطيتهم بعض الأدوار وسكنتهم بها، أنا غريب، لم يكن ثمة دور لي، ولذلك نجح الأمر معي».

تفحص معاذ ظهر زين بانبهار، قال وهو غير قادرٍ على إخفاء انبهاره:

-«أنت أغرب سائق رأيته بحياتي».

بثقة شديدة قال زين:

-«الجميع يقولون نفس الشيء قبل أن يُغادرونني».

سأل معاذ مُتحققًا:

-«وهل يُسعدك هذا الأمر؟»

-«تقصد كوني غريب؟»

أومأ معاذ برأسه إيماءة لمحها زين في مرآته:

-«أجل».

سأل زين بطريقة تحقق أيضًا:

-«هل يُسعدك كونك رجل في الخامسة والعشرين من عمره؟»

اندهاش معاذ من السؤال، لكنه أجابه قائلًا:

-«لا».

-«وكذلك أنا، بالنسبة لي الغرابة أمرٌ طبيعي».

وجد معاذ نفسه أمام منزله، تعجب من الأمر، سأل زين:

-«وكيف عرفت مكان بيتي بالضبط؟»

-«قلت لك، لقد أخبرتني بنفسك العنوان بالتفصيل».

نزل معاذ من السيارة ثم أمسك ورقة من فئة المئة جنيه وذهب بها ناحية زين، حيث مقعد القيادة الملاصق لباب السيارة، مد معاذ يده بالمئة جنيه من مكان الزجاج المنكمش وقال:

-«لن أنسى يومًا أنني قابلتك».

-«وأنا سأنساك مع أول راكب جديد يشغل مقعدك، أليس معك ورقة بخمسين جنيهًا؟ لا أملك أي فكة!»

تعجب معاذ من الرد، ضحك:

-«ألم أقل لك أنك غريب!»

-«ألم أقل لك أني أعرف ذلك!»

تحكم معاذ في دهشته المُفرطة، نظر إلى باب المنزل الذي كان يُفتح ويخرج منه عز الدين، قال معاذ:

-«أبي سيُعطيك الخمسين جنيه ويأخذ المئة».

صمت زين، سأل معاذ سؤالًا فضوليًا:

-«ستجمعنا الصدفة ثانية؟»

-«لا، لن نلتقي».

-«ألست سائق أجرة! من الطبيعي جدًا أن نلتقي في أي وقت».

-«لم يحدث أبدًا أن دخل سيارتي راكب لأكثر من مرتين».

كان عز الدين يقترب من باب السيارة، قال معاذ لزين:

-«أشكرك للمرة الأخيرة».

لأول مرة أظهر زين تعاطفًا حقيقيًا، قال:

-«أتمنى من كل قلبي أن تكون دائمًا بخير».

توجه معاذ ناحية البيت، التقى بعز الدين وطالبه بإعطاء خمسين جنيهًا للسائق وأخذ ورقة المئة منه، ولأول مرة، كان عز الدين قادرًا على مشاهدة معاذ سعيدًا، هذا الوجه لا يُمكن أن يكون أبدًا لشخص حزين، لقد أنار الآن، وإن كان ثمة وصف يجب أن تصف به ذلك الوجه خلال السنوات الخمس

الماضية فهو أنه كان مُنطفئ، أو مُظلم إذا أردت التحديد.

دلف إلى البيت ثم دخل غرفته، ألقى بالحقيبة ثم تمدد على السرير بارتياح، شيء آخر قد تغير في ذلك الفتى، لم يعد يشعر بالحزن طوال الوقت، وحتى لو كان موضوع الوهم الذي عاش به قد أغضبه فإنه لم يفعل إلى الحد الذي يمنعه من السعادة بأن أحدًا ما لم يمت طوال السنوات الخمس الماضية كما كان يتوقع، لا وجود لإسراء، ولا الفيلسوف، ولا حتى المذكرات، لا وجود لأي شيء يبعث على الحزن تحديدًا، والآن، لماذا قد يكون الفتى حزينًا بعد كل ذلك!

هو الآن لا يحتاج للحزن، فقط ما يحتاجه هو الهواء، النظيف تحديدًا، لقد قرأ ذات مرة أن الأمل يدلف إلى الجسم مع الهواء، سيُحاول أن يفعل ذلك، صعد إلى سطح المنزل ثم استنشق كل ما حوله من هواء، نظر بالأسفل فوجد والده لا يزال واقفًا مع زين، لم يُعر الأمر اهتمامًا وأكمل استنشاق الهواء بنهم، كان يبتسم، كان سعيدًا، لقد ضحك من قلبه، فعل ذلك لأول مرة منذ خمس سنوات.

***

تذكر مرة أخرى، الكون كله افتراضي، لا توجد حقائق.

(١٢)

أسفل بيت عز الدين،

أمام أنظار معاذ وبعيدًا عن أذنيه.

-«لقد مر كل شيء بخير؟»

سأل عز الدين السائق بارتياب، نظر الرجل حوله ثم تأكد أن أحدًا ما لا يسمع ما يدور بينهما، قال وهو يدعي مسح زجاج سيارته بخرقةٍ قديمة بالية:

-«أظن أننا نجحنا».

تهلل عز الدين وأشرق وجهه:

-«الحمد لله، لقد علمت أنك ستفعلها».

بادله السائق الابتسام، قال وهو يُربت على كتفه بحب:

-«لقد كان الله معنا، يُساندنا، ولا أُخفيك أنني شعرتُ في وقتٍ من الأوقات أننا سنفشل لولا أن تدخل الله وأنقذ الأمر».

زفر عز الدين بارتياح، قال يُحدث السائق بنفس درجة الحرص والسرية:

-«أنت أفضل لاعب شطرنج رأيته في حياتي، لقد حركت كل القطع بطريقةٍ سحرية، ألم تكن تتوقع الخطأ! ألم يُراودك شعورٌ في لحظة من اللحظات بأن معاذ سيكتشف الأمر!»

-كان كل شيء مُهيأ، لكن ما ساعدني أكثر أن كل القطع قد تحركت الحركات التي أُريدها، الجميع فعل ما اتفقنا علياه بالضبط، لم يخذلني أحد تقريبًا!»

أومأ عز الدين موافقًا، ما زال يحتفظ بابتسامته:

-«أتظن أنه سيُسامحنا إن عرف الحقيقة!»

تغير وجه السائق، قال بلهجةٍ تحذيرية:

-«لن يعرف، وإياك أن تُخبره، إياك أن تفعل يا عز الدين».

نظر السائق لعز الدين فوجده مترددًا، تابع حديثه:

-«لقد أعدناه من الموت يا رجل، لن يعرف قيمة ذلك إلا عندما يُتابع حياته الطبيعية».

ابتسم عز الدين بفرح، قال بأمل:

-«معك حق، لقد أعدناه من الموت، لسنا مُخطئين في شيء».

تأهب السائق للرحيل، أوقفه عز الدين، سأل بتردد:

-«ألن تُعرّفه حتى بهويتك الحقيقية؟»

-«لو فعلت سأُدمر كل شيء، دعه يذكرني كزين الذي أنقذه، زين فقط».

نظر السائق في الفراغ وحدق به، لاحظ عز الدين ذلك، قال مُقاطعًا:

-«في عتمة التخطيط لما حدث نسيت أن أقدم العزاء، آسف جدًا لما حدث لابنتك وزوجتك».

-«لقد كان ذلك قدرهما، ولم يكن قدر ابنك مثلهما أبدًا، لذلك كان عليّ أن أفعل المُستحيل لتجنيبه ذلك القدر الذي لا يستحق، لقد فعلت واجبي يا عز الدين، المسألة ليست مجرد كونك صديقي الجامعي القديم».

-«وأشهد أنك قد أديت واجبك كأفضل ما يكون».

تحرك السائق باتجاه السيارة، فتح الباب واستعد للدخول ثم عاد إلى عز الدين

مجددًا، قال وكأنه قد تذكر شيئًا:

-«أعرف أنه من الوقاحة أن أقول ذلك، لكن يجب ألا نلتقي مرة أخرى مهما حدث، لكي ينجح ما فعلناه وإعادة الحياة لمعاذ، علينا أن ننسى صداقتنا تمامًا، سآخذ بدر وأسافر خارج البلاد، لن أعود مرة أخرى، لا تذكرني أمام معاذ، ولا تذكر أي شيء يتعلق بهذا الأمر، أُراهنك أنه يود ذلك أيضًا، هل تتفهمني؟»

لم يأخذ عز الدين وقتًا طويلًا لتفهم كلمات السائق، قال بوضوح:

-«بالتأكيد أنت محق، لكن ألا ترى أن ذلك القرار يستحق عناقًا أخيرًا؟»

ضحك السائق ثم توجه نحو عز الدين واحتضنه، قال وهو يحتضن:

-«الوداع يا عز الدين».

بادله عز الدين الوداع خلال الاحتضان، قال:

-«الوداع يا حسن».

توجه الدكتور حسن، الذي اضطرته خطته للعمل بيومين كسائق، تجاه السيارة ثم استقلها وابتعد بعيدًا عن أنظار عز الدين ومعاذ الذي كان لا يزال على السطح يستنشق دفعات أكثر من الهواء النقي.

***

أشياء كثيرة في هذا العالم تستحق الخلود.

(١٣)

٣٠ يناير ٢٠٦٦

معرض القاهرة الدولي للكتاب، قاعة الاحتفالات.

كانت قاعة الاحتفالات تعج بالوافدين من كل حدبٍ وصوب، تقريبًا ليس هناك موضع لقدم، وكل قدم كانت تدخل ذلك المكان لم تكن تتجاوز أبدًا ذلك البوستر المُعلق على باب القاعة، كان غلاف كتاب حسبما يبدو، لكن المفاجأة الحقيقية كانت فيما هو مكتوبٌ بجانب الإعلان عن الحفل، لقد كُتب أن ما يُدعى إليه داخل هذه القاعة حفل توقيعٍ عادية، لكنها فقط مُقامة لرواية مات صاحبها قبل شهور!

معاذ عز الدين، هذا هو اسم المؤلف، أما الذين من المفترض أن يُقيموا الحفل فهم بنوه، يوسف معاذ وبدر معاذ وإسراء معاذ، وتحديدًا إسراء، تلك الفتاة اليافعة التي اعتلت المنصة ثم اتجهت صوب هالة خشبية مُعلقٌ فوقها ميكروفون صغير، وقفت إسراء أمامها وصوبت صوتها نحو الميكروفون قائلةً:

«السادة الحضور، إن الرواية التي تحملونها بين أيديكم الآن ليست رواية عادية بالمرة، إنها حياة، كان من سوء حظنا أننا لم نعش بها لنرى كل هذا القدر من الحب الذي ستجدونه بها، إن أبطال هذه الرواية، والذين أشرُف أن يكون والدي وجدي أحدهم، قد عاشوا حقًا أغرب قصة حبٍ قد تسمعونها في حياتكم، سمعتها وكتبتها قبل شهور في الليلة الأخيرة لوالدي، وكم تمنيت حقًا أن أكون أحد أبطالها، لكن لا بأس، فقد حملتُ اسم أحدهم على الأقل، آمل أنني قد راعيتُ الأمانة في النقل وآمل حقًا ألا تنسوا والدي من دعائكم، عيشوا حياتكم بحب وصدق وأمل، فالحياة مجرد أيام تنقضي، شكرًا لكم، إسراء معاذ عز الدين».

غادرت إسراء منصة الإلقاء ثم احتضنت شقيقيها اللذين اغرورقت أعينهما بالدموع لكلماتها، لاحقًا، وككاتبة بدرجة نجمة، وقفت إسراء بين جمعٍ غفير توقع رواية أبيها للقراء وتبتسم لأول مرة منذ رحيله.

تمت بحمد الله.

١٧ ديسمبر ٢٠١٧

إهداء أول

أُهدي هذا العمل إلى كل شخص يقرأ على هذه الأرض، القراءة حياة، سيكون من الظالم جدًا ألا تعيشوها.

إهداء ثانٍ

إلى إسراء حسن منير ومعاذ عز الدين ويوسف الفيلسوف، شكرًا لأنكم سمحتم لي بالعبث في عالمكم.

إهداء ثالث

إلى عبد الرحمن ناجي وحامد الدموكي وكريمة عبده وأحمد مسلم وعبد الفتاح الصباغ، إلى الموت حيث كان.

للتواصل مع الكاتب:

الصفحة الرسمية: facebook.com/mahmouddemoky

الحساب الرسمى: www.facebook.com/mahmoud.eldmoky.١١

الرواية على الجود ريدز: www.goodreads.com/show/26282125

مدين بالفضل لكل قراء الجزء الأول الذين راسلوني بآرائهم ودعموا مشروع الرواية منذ البداية، وتمكنت بطريقة ما من الوصول إلى بعضهم، ينوب عنهم بالاسم:

إسراء عادل	إسراء حواء	أسماء حسن
إسراء علي	إسراء بدير	رضا عبد الكريم
إسراء سعيد	إسراء رضا	محمد علام
إسراء سعد	إسراء أحمد	إسراء ناصر
إسراء عبد الرحيم	إسراء سليمان	أيمن علي
مريم أحمد	إسراء طه	صهيب علاء
إسراء حسن	إسراء مزارع	أمل جمال
إسراء حسام الدين	إسراء رجب	أم السوس
إسراء خالد	إسراء هشام	عبد الحميد العزيزي
هاجر هاني	إسراء أبو المجد	كريم ربيع
إسراء السيد	إسراء محمود	محمد بو عطية
إسراء عبد العزيز	إسراء إبراهيم	إسراء جبر
عمرو محمد	حسناء محمود	إسراء إبراهيم
إسراء الليثي	إسراء صقر	إسراء مسلم
منار عيسى	محمد حسين	محمد سامي
نشوى زكريا	حبيبة الغندور	مصطفى العياط
سيد سعيد	إسراء ياسر	صلاح خالد
إسراء عبد الحميد	منار أشرف	إسراء حسني
إسراء مختار		

فصلة

للنشر والتوزيع

Fasla Publishing & Distribution

تواصل معنا :

01067000701

E-mail -: Fasla .Pub@Gmail. com

Facebook .Com/Fasla .Pub